في سبيل وحدة الأمة

١

وجوب وحدة المسلمين

إعداد

عبد المجيد البيانوني

دار حافظ
للنشر والتوزيع

في سبيل وحدة الأمة

(١)

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾

وجوب وحدة المسلمين

إعداد

عبد المجيد البيانوني

دار حافظ

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار حافظ للنشر والتوزيع
جدة ـ شارع الجامعة ـ امام جامعة الملك عبد العزيز
هاتف: ٦٨٩٥٣٩٢ ـ فاكس: ٦٨٩٢٨٦٠ ـ ص.ب. ٢٩٧٣، الرمز البريدي: ٢١٤٦١

الإهـداء

إلى الشباب المسلم الظامىء إلى العمل الإسلامي الرشيد

إلى الفتية المؤمنة، التي تتحسس مواقع أقدامها في خضمّ من صراع التيارات والمبادىء والاتجاهات..

إلى الذين عثرت بهم الأقدام، وكبت النفوس.. واستمرءوا فلسفة الإحباط والتقصير..

إلى جيل اليقظة المؤمن!

الذي نحبّه.. ونرجو له.. ونخاف عليه..

أقدم هذا البحث.. معلماً على الطريق

عبد المجيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، خير من حمل الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين.

صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آل بيته الأطهار، وصحابته العدول الأخيار، وعلى من اتبع سنته، واهتدى بهديه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كنت أحسب البحث في وجوب وحدة المسلمين، بحثاً مكروراً معاداً، قد كثر القول عنه، والحديث فيه.. حتى رأيت هذا الموضوع مطروحاً للبحث فترددت أولاً لظنّي أن بحثي لن يأتي بجديد ثم أمعنت النظر فرأيت من واقع حياة الأمة، والعاملين للإسلام على وجه الخصوص.. ما يوجب تناول هذا الموضوع من كل جانب، وتسليط الأضواء عليه من كل زاوية، حرصاً على الجهود المبعثرة، والطاقات المبددة والإمكانات المهدورة، والكرامة الممتهنة، كما أن هناك أموراً تحتاج أن تضم في نسق واحد، وتقرن مع مثيلاتها ليتضح التصور لموقف الإسلام من الواقع المفكك الذي تعيشه الأمة، لعل ذلك الوضوح في

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، خير من حمل الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين.

صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آل بيته الأطهار، وصحابته العدول الأخيار، وعلى من اتبع سنته، واهتدى بهديه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كنت أحسب البحث في وجوب وحدة المسلمين، بحثاً مكروراً معاداً، قد كثر القول عنه، والحديث فيه.. حتى رأيت هذا الموضوع مطروحاً للبحث فترددت أولاً لظنّي أن بحثي لن يأتي بجديد ثم أمعنت النظر فرأيت من واقع حياة الأمة، والعاملين للإسلام على وجه الخصوص.. ما يوجب تناول هذا الموضوع من كل جانب، وتسليط الأضواء عليه من كل زاوية، حرصاً على الجهود المبعثرة، والطاقات المبددة والإمكانات المهدورة، والكرامة الممتهنة، كما أن هناك أموراً تحتاج أن تضم في نسق واحد، وتقرن مع مثيلاتها ليتضح التصور لموقف الإسلام من الواقع المفكك الذي تعيشه الأمة، لعل ذلك الوضوح في

الرؤية، يوجه أنظار العاملين للإسلام، وذوي الغيرة على مستقبل الأمة، للسعي الجادّ إلى تحقيق الهدف المرجو، وبلوغ الغاية المنشودة، بالسير في الطريق الصحيح لتحقيق عزة الأمة وكرامتها وسيادتها..

وإننا في عصر يشهد فيه العالم من شرقه إلى غربه.. تكتلات وأحلافاً تجمع أمماً من الناس على تحقيق مصالح مشتركة، ودفع أخطار عن نفسها متوقعة.. وكثيراً ما تكون تلك التكتلات والأحلاف بين أمم تتباين في أديانها وثقافاتها، وأعرافها وتقاليدها.. ومع ذلك فهي تستطيع أن تجد بينها قدراً مشتركاً من المصالح التي تلتقي عليها وتسعى إلى تحقيقها.. تاركة نقاط الاختلاف والتباعد، بعيدة عن مجال بحثها وحديثها.. إلى حين قد ترى فيه مصالحها العليا تقتضي إثارة تلك النقاط، وتسليط الأضواء عليها..

وإن أكثر هذه التكتلات والأحلاف يهدف إلى اقتسام النفوذ على الأمة الإسلامية، وإحكام السيطرة عليها، والتآمر على كيانها وكرامتها، واستقلالها في أمرها.

ومع ذلك فلا نرى أمتنا إلا متفرقة مختلفة.. لا تبرز على سطح علاقاتها إلا الخلافات الهامشية الثانوية.. لتكون حديث الساعة.. وشغل الناس الشاغل ومصدر تفرق ونزاع.. وتدابر وخصام.. وضياع للوقت، وإهدار للجهد.. وتبديد للطاقات..

وإن رفعة هذه الأمة وخيريتها التي يريدها لها الله تبارك وتعالى لا تكون إلا باجتماع كلمتها على الاعتصام بدينها، بخصائصه العظيمة، وحقائقه الكبرى.. ومبادئه الخالدة ونبذ الخلافات

الهامشية، وقطع أسبابها ووضعها موضعها.. وإعطائها حجمها الصحيح.. والسعي المشترك نحو الأهداف العليا التي رسمها الإسلام سبيلاً لعزة المسلمين وكرامتهم، وقيادتهم للإنسانية قيادة واعية حكيمة..

ومن هنا، ولهذه الأسباب كلها.. كان لا بد من تركيز الجهود، وتوجيه الانتباه إلى ضرورة وحدة الأمة، ونبذ خلافاتها، والسعي في توحيد كلمتها، وتقريب وجهات النظر في مواقفها، لتتحقق لها عزتها المفقودة، وتستعيد كرامتها المهدورة، وتقوم بدورها الرائد في استقلالها الحر بأمر نفسها.. ثم قيادتها للبشرية إلى ما فيه صلاحها وإنقاذها.. وكان لا بدّ من السير في هذا الاتجاه إلى أقصى حدوده.. وأعلى غاياته..

وكان لا بدّ من كثرة الحديث حول وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم.. وإن كثرة الحديث في هذا الباب ليست بكثرة، ما دام حال الأمة على ما هو عليه.. يتأخر، في هذا السبيل ولا يتقدم.. ويتفرق ويتشرذم، ويزداد عقدها على الأيام انفراطاً، ونظامها انتثاراً، وذرّاتها تنافراً.. وما دامت البدهيات الأولى من بدهيات الإسلام تحتاج إلى برهان وتذكير، وتفتقر إلى الأدلة في عقول الكثير..

ولكننا لا نيأس من روح الله تعالى أن يدرك هذه الأمة، فيلمّ شعثها، ويجمع كلمتها، ويصلح شأنها.. ويردها إلى سالف سيرتها ومجدها.. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب..

والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..

هذا وقد تناولت هذا الموضوع في مبحثين، وخاتمة:

- **المبحث الأول**: الأدلة الشرعية على وجوب وحدة الأمة الإسلامية.
- **المبحث الثاني**: إقامة أصول الإسلام ومبادئه، تحقق وحدة الأمة، وتجمع كلمتها.
- **الخاتمة**: في وجوب السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين، وعلى من تقع مسؤولية ذلك.

والله تبارك وتعالى أسأل، أن يجنّبني الزلل، ويرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يضعف لي الجزاء والمثوبة، وأن يتقبل مني هذا العمل بقبول حسن، برحمته وفضله، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيّه سيدنا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين..

٦/٥/١٤١٠هـ. **وكتبه**

٤/١٢/١٩٨٩م. **عبد المجيد بيانوني**

المبحث الأول

الأدلة الشرعية
على وجوب وحدة الأمة الاسلامية

وتنقسم هذه الأدلة إلى نوعين:

- **النوع الأول**: الأدلة النقلية: وتشمل الأدلة من القرآن الكريم؛ والأدلة من السنة؛ والأدلة من أقوال الصحابة، رضي الله عنهم.

- **والنوع الثاني**: وهي الأدلة الاجتهادية الاستنباطية: وتشمل الأدلة التي تعود إلى القواعد الشرعية الكلية؛ والأصول العامة؛ والأدلة المستفادة من المسار التاريخي لهذه الأمة، ومن الواقع المعاصر.

النوع الأول من الأدلة

(أ) الأدلة من القرآن الكريم:

لقد تعددت الأدلة من القرآن الكريم التي تدلّ على وجوب وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم، وجاءت بأساليب متنوعة، كلها تؤكد على هذه الفريضة، وتحذّر من عواقب التفريط فيها، فمن ذلك:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار، فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته، لعلكم تهتدون﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة.. أمر ونهي، وتذكير.. أمر بالاعتصام بحبل الله ونهي عن التفرق والاختلاف.. وتذكير بنعمة الله تعالى، قبل هذه النعمة، كيف كان الناس أعداءً متناحرين، قلوبهم متفرقة، وجماعتهم متمزقة.. فأصبحوا إخواناً في الله متحابين، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب خصامهم وتنازعهم، فأنقذهم الله منها. وفي ذلك تنويه إلى أن ترك الاعتصام بحبل الله المتين، والتفرق في الدين سيؤول بالأمة إلى الفرقة والخصام، وشتات القلوب، وتفرق الجماعة إلى شيع وشراذم.. وسيحلها مقت الله وغضبه، والسقوط في نار جهنم..

يقول الإمام الرازي، رحمه الله تعالى:

«واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف».. ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلقت أرجل الكثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف، فكان المراد من الحبل ههنا: كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين، وهو أنواع كثيرة، فذكر كل واحد من المفسرين واحداً من تلك الأشياء.

---

(١) من سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

فقال ابن عباس، رضي الله عنهما: المراد بالحبل ههنا العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾[1]، وقوله: ﴿إلا بحبل من الله، وحبل من الناس﴾[2]، أي: بعهد، وإنما سمي العهد حبلاً، لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء، وكان كالحبل، الذي من تمسك به زال عنه الخوف.

وقيل: «إنه القرآن» روي عن علي، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أما إنها ستكون فتنة»، قيل: فما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حبل الله المتين».

وروي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «هذا القرآن حبل الله».

وروي عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي»، وقيل: إنه دين الله، وقيل: هو طاعة الله، وقيل: هو إخلاص التوبة، وقيل: الجماعة، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله: ﴿ولا تفرقوا﴾.

وهذه الأقوال كلها متقاربة، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبل تحرزاً من السقوط فيها، وكان كتاب الله وعهده، ودينه وطاعته، وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٢) من سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

من السقوط في قعر جهنم، جعل ذلك حبلاً لله، وأمروا بالاعتصام به».

ثم قال في قوله تعالى: ﴿ولا تفرقوا﴾:

«... نهي عن الاختلاف في الدين، وذلك لأن الحق لا يكون إلا واحداً، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً، فلما كان كذلك، وجب أن يكون النهي عن الاختلاف في الدين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾[1] ».

وفي ذلك: «نهي عن المعاداة والمخاصمة، فإنهم كانوا في الجاهلية مواظبين على المحاربة والمنازعة، فنهاهم الله عنها»[2].

فقد نهى الله تعالى عما يوجب الفرقة، ويزيل الالفة والمحبة.. وقد أكّد الحق تبارك وتعالى هذا الأمر الإلهي بالاعتصام بحبله المتين، والنهي الشديد عن التفرق وما سيؤول إليه من خصام وعذاب.. أكّد ذلك كله، بذكر حال اليهود والنصارى، وما فيه من عبرة عظيمة، فقال سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[3]

* * *

٢ ــ قوله تعالى: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم، وكانوا شيعاً،

---

(١) من سورة يونس، الآية ٣٢.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الرازي، رحمه الله: ٨/١٦٢ ــ ١٦٣.

(٣) من سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

لست منهم في شيء، إنما أمرهم إلى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة، يبرّىء الله نبيّه ﷺ ممّن اختلفوا في دينهم، وتفرّقوا إلى شيع وأحزاب، يكفّر بعضهم بعضاً، سواءٌ أكانوا من المشركين، أم من اليهود والنصارى، أم من هذه الأمة، التي أخبر النبي ﷺ أنها سيكثر الخلاف فيها، وتنقسم إلى فرق كثيرة، يضل كثير منها عن منهج الله، وتختلف كلمتهم، عن جماعة المسلمين، وسواد الأمة الأعظم..

يقول الإمام الرازي، رحمه الله، في تفسير هذه الآية:

«واعلم أن المراد من الآية، الحثّ على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين، ولا يبتدعوا البدع...»[2].

* * *

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى، ويتّبع غير سبيل المؤمنين، نولّه ما تولى، ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾[3].

يقول الإمام ابن كثير، رحمه الله:

«أي، ومن سلك غير طريق الشريعة، التي جاء بها

---

(١) من سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ٨/١٤.

(٣) من سورة النساء، الآية: ١١٥.

الرسول ﷺ، فصار في شقّ، والشرع في شقّ، وذلك عن عمد منه، بعدما ظهر له الحق، وتبين له، واتّضح له، وقوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾: هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنصّ الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها»[1].

وفي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى أن الأصل الذي لا معدى عنه أن تكون أمة الإسلام واحدة، سبيلها واحد، ومنهجها واحد.. وأن من خرج عن ذلك، وفارق الكلمة المجتمعة والصف المرصوص، يناله الوعيد الشديد، والعذاب الأكيد: ﴿ويتّبع غير سبيل المؤمنين، نولّه ما تولّى، ونصله جهنم، وساءت مصيرا﴾.

وفي هذا المعنى يقول الإمام الرازي، رحمه الله:

«وتقرير الاستدلال أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً... وذلك لأن عدم اتباع سبيل المؤمنين يصدق عليه أنه اتباع لغير سبيل المؤمنين، فإذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين حراماً، لزم أن يكون عدم اتباع سبيل المؤمنين حراماً، وإذا كان عدم اتباعهم حراماً، كان اتباعهم واجباً، لأنه لا خروج عن طرفي النقيض»[2].

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير: ١/٥٥٤ ـ ٥٥٥ باختصار.

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ١١/٤٣.

ويؤكد هذا المعنى ويوضحه قوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحقّ إلا الضلال﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿قل: ربي أعلم من جاء بالهدى، ومن هو في ضلال مبين﴾[2].

* * *

٤ ـ قوله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً، ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألّف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾[3].

فقد امتنّ الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ بتأييده بالمؤمنين، ووصفهم بصفة عظيمة، وهي أنهم متآلفة قلوبهم متآخية، مجتمعة على طاعة رسول الله ﷺ والانقياد لأوامره.. وأن ذلك كان فضلاً من الله ونعمة، وتأييداً من الله سبحانه لرسوله ﷺ وعناية بدعوته.. وأن ذلك لم يكن بقدرة أحد من البشر ولن يكون، وبخاصة إذا فكر الإنسان فيما كانوا عليه في الجاهلية من اختلاف واختصام، وما آلوا إليه من ودّ وإيثار ووئام..

وقريب من هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فبما رحمة من الله لِنتَ لهم، ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك...﴾[4].

---

(١) من سورة يونس، الآية: ٣٢.

(٢) من سورة القصص، الآية: ٨٥.

(٣) من سورة الأنفال، الآيتان: ٦٢، ٦٣.

(٤) من سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

فتلك الآية ذكرت المنة الإلهية في جمع قلوب المؤمنين على رسول الله ﷺ، وهذه الآية ذكرت السبب القريب، الذي يتصل بأخلاق النبي ﷺ، وما جبل عليه قلبه الشريف من الرحمة العظيمة، والشفقة العامة بأمته.. وذلك أيضاً من فضل الله ورحمته...

* * *

٥ ـ قوله سبحانه: ﴿إن هذه أمتكم أمةً واحدةً، وأنا ربكم فاعبدون، وتقطعوا أمرهم بينهم، كلٌّ إلينا راجعون﴾[١].

وقوله سبحانه: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾[٢].

فهذه الآيات الكريمة فيها إخبار من الله تعالى أن دين الأنبياء واحد وملّتهم واحدة، لا تعارض فيها ولا اختلاف، وهذا الإخبار فيه معنى الأمر، ويقتضي وجوب الالتزام بدين الإسلام، والانضواء تحت لواء جماعة المسلمين..

وقد نعى الله تبارك وتعالى على من جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه، فيصير لهذا نصيب، ولذلك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى.. ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه

---

(١) من سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

(٢) من سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم[1]. . وفي هذا تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، أو تنهج سبيلهم، فتركب الأهواء، فتصبح شيعاً وأحزاباً. . وحثّ لها على التمسك بكتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ، ونهجه المبين. .

* * *

٦ ــ ومن الآيات التي فيها تحذير وتنديد من عاقبة التفرق والاختلاف، وتفرق الأمة إلى شيع وأحزاب. . قوله تعالى: ﴿قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض، أنظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون﴾[2].

روى البخاري في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون أو أيسر»[3] وإنما كانت أهون أو أيسر لأن الخصلتين اللتين قبلها إنما هما من عذاب الاستئصال.

---

(١) راجع التفسير الكبير: ٢٢/٢١٩.

(٢) من سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٣) انظر تفسير ابن كثير، رحمه الله: ٢/١٣٩، وقد توسع في ذكر الروايات التي تثبت أن هذه الآية مقصود بها هذه الأمة، وقد اتجه سيد قطب، رحمه الله، في تفسيرها إلى أنها تتناول أمم الأرض الحاضرة.

وروى مسلم عن ثوبان، رضي الله عنه[1]، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامّة، وألا يسلّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً، فإنه لا يردّ، وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامّة، وألا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم ـ أي مجتمعهم وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم ـ ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً». وروي أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية، قال: «يا جبريل! ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة، ويذيق بعضهم بأس بعض؟!»، فنزل جبريل بهذه الآية: ﴿ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا، وهم لا يفتنون؟!﴾ من سورة العنكبوت.

* * *

هذه أهم الأدلة في هذا المبحث من القرآن الكريم، وسيأتي بعضٌ آخر في مناسبة أخرى من البحث بعون الله تعالى.

(ب) الأدلة من السنة النبوية:

إن الأدلة من السنة النبوية، وأحداث السيرة، أكثر من أن تحصى أو تدخل تحت الجمع والحصر..

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ٧/ ١٠.

ويكفي أن نعلم أنه ما من عالم من العلماء صنف كتاباً في السنة النبوية إلا وجعل باباً من أبوابه: «باب الاعتصام بالكتاب والسنة...» وما يدخل في ذلك من وحدة جماعة المسلمين، وتحريم الخروج عنهم، وتفريق جماعتهم..

١ ـ فمن الأحاديث التي جاءت في الأمر بلزوم الجماعة، وتحريم الخروج عنها؛ ما رواه العرباض بن سارية، رضي الله عنه، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

ففي هذا الحديث الذي يعدّ وصية نبوية جامعة، وأصلاً عظيماً من أصول هذا الدين، يأمر النبي ﷺ أصحابه وأمته بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليهم عبد حبشي.

والسمع والطاعة لولاة أمور المسلمين هي أصل اجتماع كلمة المسلمين، ووحدة جماعتهم، وانتظام صفهم، فيها سعادة الدنيا،

---

(١) رواه أبو داود: ٤٦٠٧؛ والترمذي: ٢٦٧٨، وقال: حديث حسن صحيح؛ وأخرجه الإمام أحمد: ١٢٦/٤، ١٢٧؛ وابن ماجه: ص ٤٢ ـ ٤٤؛ والدارمي: ٤٤/١، ٤٥، وإسناده صحيح؛ وصححه ابن حبان: ١٠٢. انظر رياض الصالحين، تحقيق رباح والدقاق.

وانتظام مصالح العباد في معاشهم، وبها يظهر دينهم على الدين كله..

وقد أكّد النبي ﷺ الأمر بالسمع والطاعة، بقوله: «وإن تأمّر عليكم عبدٌ.. وفي رواية زيادة: حبشي.. وفي حديث خطبة الوداع: عبدٌ حبشي مجدّع، فاسمعوا له، وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله».

ثم بيّن النبي ﷺ ما يحفظ هذه الأمة من التفرق، وتمزق الصف، فقال: «فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً»، فالعصمة من ذلك: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ...».

وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات»[1]، وتفرق أمر الأمة إلى ولايات وسياسات، وتمزق أمصارها، وقيام الحدود المصطنعة بينها، والحواجز النفسية والفكرية بين أبنائها.. وشيوع الدعوات الجاهلية في صفوفها..

ولا منجاة من ذلك إلا بالتمسك بسنته ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده.. والتأكيد على شدة ذلك بالعضّ عليها بالنواجذ، شأن من يتمسك بشيء لينجو به من الهلاك المحقق.

ثم حذّر، ﷺ، من محدثات الأمور المبتدعة، التي تضاهي

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبلي، ص ٢٣٠.

دين الله وشرعه، وسنة نبيه ﷺ وهديه.. وهي السبيل لشيوع الأهواء، وافتراق الأمة إلى شيع وفئات، وأحزاب وجماعات.. وقد كان، ﷺ، يقول في خطبته: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[1].

والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه، فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعة لغة[2].

وفي الحديث عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ».

وفي رواية لمسلم: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ[3]، أي مردود عليه، وغير مقبول منه...

* * *

٢ ــ ومن الأحاديث التي جاءت في استحلال دم الخارج عن الجماعة، الشاقّ لعصا الطاعة، ما رواه عبد الله بن مسعود،

---

(١) رواه الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما. انظر «جامع العلوم والحكم»، ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) رواه البخاري: ٥/٢٢١؛ ومسلم: ١٧/١٧١٨؛ وأخرجه الإمام أحمد: ٦/٢٧٠؛ وأبو داود: ٤٦٠٦؛ وابن ماجه: ١٤. انظر رياض الصالحين، ص ٩٣، الطبعة المحققة.

رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم، إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني؛ والنفس بالنفس؛ والتارك لدينه، المفارق للجماعة»[1].

فقد نصّ هذا الحديث على حلّ دم المرتد عن دينه، الذي يفارق جماعة المسلمين، وزيادة هذا القيد فيه دليل على أن المفارق لجماعة المسلمين الخارج عليها، يقاتل ويقتل، ولو كان يدعي الإسلام، ولا يعلن الارتداد عن أحكامه..

وفي تشريع ذلك صيانة لوحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، والتئام شملهم..

ويؤيد هذا المعنى ما جاء في حديث عائشة عند أبي داود: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث» ذكر منها: «ورجل خرج محارباً لله ورسوله، فإنه يقتل أو يصلب، أو ينفى من الأرض...»[2].

ويؤكده أيضاً حديث: «من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد، فأراد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه». وفي رواية: «فاضربوا رأسه بالسيف، كائناً من كان»[3].

* * *

(١) متفق عليه، ورواه الترمذي والنسائي، وابن ماجه بألفاظ مقاربة. وانظر تخريج الحديث في «جامع العلوم والحكم»، ص ١٠٦، وكذلك الكلام على رواياته ومعناه.

(٢) انظر الحديث في «جامع العلوم والحكم»، ص ١٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٠.

٣ ــ ولزوم الجماعة هو النجاة من الفتن، جاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد هذا الشرّ من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدرككَ الموت، وأنت على ذلك»[1].

«وكل هذا تحذير من الفتن، وحضٌّ للمسلمين على اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، فلينتبهوا من غفلتهم، ولينتفعوا بمواعظ نبيهم محمد ﷺ»[2].

* * *

٤ ــ ومن أعظم ما جاء من الأحاديث التي تحذر الأمة من اختلاف الكلمة، والبعد عن الجماعة، حديث افتراق هذه الأمة إلى

---

(١) رواه البخاري ومسلم. انظر كتاب «الفتن»، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.

ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار.

روى الترمذي وأبو داود والحاكم عن أبـي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، إحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»[1].

---

(١) قال في «كشف الخفاء»: «رواه ابن أبـي الدنيا عن عوف بن مالك، ورواه أبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان، وصححوه عن أبـي هريرة بلفظِ افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فِرقة، والنصارى كذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابـي. ورواه الشعراني في الميزان من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب، وهو: ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة، وفي رواية عند الديلمي: الهالك منها واحدة، قال العلماء: هي الزنادقة. انتهى. وفي هامش الميزان المذكور عن أنس عن النبـي ﷺ بلفظِ: تفترق أمتي على بِضع وسبعين فِرقة، كلُّها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة، قال: وفي رواية عنه أيضاً: تفترق هذه الأمة على بِضع وسبعين فِرقة، إني أعلم أهداها: الجماعة. انتهى. ثم رأيت ما في هامش الميزان مذكوراً في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر، ولفظُه: تفترق أمتي على بِضع وسبعين فِرقة، كلُّها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة، أسنده عن أنس، قال: وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن أنس بلفظِ: أهداها فِرقة الجماعة. انتهى. فلْينظر مع المشهور، ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو مآلاً فتأمل، وفي الباب عن معاوية وأبـي الدرداء وابن عمرو وابن عباس وسعد ابن أبـي وقاص وابن عمر ووائلة وأبـي أمامة، ورواه الترمذي عن ابن عمر بلفظ ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فِرقة، كلُّهم في النار إلا واحدة،

وقد ذكر شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، هذا الحديث وصححه، وذكر في رواية: قالوا: يا رسول الله، من الفرقة الناجية؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم

= قيل: ومن هم؟ قال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي؛ ورواه ابن الجوزي في كتاب تلبيس إبليس بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة، أو إثنتين وسبعين فِرقة، والنصارى مثلَ ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وفيه أيضاً بسنده إلى عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ليَأتينَّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل، حتى إنْ كان فيهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على إثنتين وسبعين مِلّة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلُّهم في النار إلا ملةً واحدة، قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي، قال الترمذي: حديث حسن غريب لا يُعرف إلا من هذا الوجه، وفيه أيضاً بسنده إلى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فِرقة، فهلكت سبعون فِرقة، وخلصَت فِرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فِرقة، يهلِك إحدى وسبعون ويخلُص فِرقة، قالوا: يا رسول الله، ما تلك الفِرقة؟ قال: فِرقة الجماعة، وقال فيه أيضاً: فإن قيل: وهل هذه الفرقة معروفة؟ فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفِرق وأن كل طائفة من الفِرق انقسمت إلى فِرق وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، قال: وقد ظهر لنا من أصول الفِرق: الحَرورية، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية؛ وقد قال بعض أهل العلم أصل الفرق هذه الست، وقد انقسمت كلُّ فِرقة منها اثنتَيْ عشرةَ فِرقة، فصارت اثنتين وسبعين فِرقة. انتهى. ثم فصّلها وعرّف كل فِرقة منها فيه، وقد ذكرنا ذلك جميعه مع كلام الموافق وشرحه والمِلَل والنِحَل مبسوطاً في رحلتنا المسماة بالبسط التام في الرحلة إلى بعض بلاد الشام، فراجعها». انظر «كشف الخفاء»: ١/١٦٨ ـ ١٧٠.

وأصحابي». وفي رواية قال: هي الجماعة، يد الله على الجماعة».

ثم قال رحمه الله:

«ولهذا وصف الفرقة الناجية، بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم.

«وأما الفرق الباقية، فإنهم أهل الشذوذ والتفرق، والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة، والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة..

«وأما تعيين هذه الفرق، فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات...»[1].

* * *

٥ ـ لزوم جماعة المسلمين، ومناصحة ولاة الأمر، من علامات الإيمان والإخلاص لله تعالى.

يقول رسول الله ﷺ، فيما رواه عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، رضي الله عنهما: «ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب امرئٍ مؤمن:

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ٣/٣٤٥ ـ ٣٤٦، وطالع بقية المبحث هناك فهو نفيس، وقد ذكر هذا الحديث أيضاً الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتاب «الفرق بين الفرق» وبيان الفرقة الناجية منهم، وقد بنى كتابه على هذا الحديث.

إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم. . .»[1].

«وفي حديث أبي هريرة المحفوظ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم»[2].

«فقد جمع الله في هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده، وتجمع الحقوق التي لله، ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة. .

«وبيان ذلك: أن الحقوق قسمان: حقّ لله، وحقّ لعباده، فحقّ الله أن نعبده، ولا نشرك به شيئاً، كما جاء لفظه في أحد الحديثين، وهذا معنى إخلاص العمل لله، كما جاء في الحديث الآخر.

«وحقوق العباد قسمان: خاص وعام، أما الخاصّ فمثل برّ كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره، فهذه من فروع الدين، لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه، ولأن مصلحتها خاصة فردية. .

---

(١) رواه الإمام أحمد، والدارمي، وابن ماجه. كما في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف: ٥٤٢/٤؛ وعزاه الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى إلى السنن: ١٨/١.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه. انظر جامع العلوم والحكم، ص ٦٧.

«وأما الحقوق العامة؛ فالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم، وحقوق الرعية لزوم جماعتهم، فإن مصلحتهم لا تتمّ إلا باجتماعهم، وهم لا يجتمعون على ضلالة، بل مصلحة دينهم ودنياهم في اجتماعهم، واعتصامهم بحبل الله جميعاً، فهذه الخصال تجمع أصول الدين.

«وقد جاءت مفسّرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تميم الداري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

«فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله، تدخل في حق الله، وعبادته وحده لا شريك له، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، هي مناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه، فهذه يمكن بعضها؛ ويتعذر استيعابها على سبيل التعيين»[2].

ونقل الإمام ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم

---

(١) رواه مسلم: ٥٥؛ وأخرجه أبو داود: ٤٩٤٤؛ والنسائي: ١٥٦/٧؛ والترمذي: ١٩٢٧. وهذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وعدّه بعض العلماء من أرباع الدين.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ١٨/١، ١٩، وهذا الكلام يعدّ قاعدة عامة، وأصلاً عظيماً، تنبني عليه أمور هامة، وتؤدي مخالفته إلى سيئات وسلبيات كثيرة، تظهر آثارها في حياة الأمة، وسنعرض للحديث عنها في موطن آخر بإذن الله...

والحكم في شرح هذا الحديث كلاماً نفيساً حكاه الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي في كتابه: «قدر الصلاة» عن بعض أهل العلم، يقول:

«وأما النصيحة لأئمة المسلمين؛ فحبّ صلاحهم، ورشدهم وعدلهم، وحبّ اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجلّ، والبغض لمن رأى الخروج عليهم، وحبّ إعزازهم، في طاعة الله عز وجل»[1].

* * *

٦ ـ ومما جاء في التحذير من مفارقة الجماعة، وتأكيد معية الله للمؤمنين إذا كانوا يداً واحدة، وصفاً واحداً.. ما رواه الترمذي في أبواب الفتن عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال:

«يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا»، ثم قال: «أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى يحلف الرجل، ولا يستحلف، ويشهد الشاهد، ولا يستشهد»، «ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»، «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة»، «من سرته حسنته، وساءته سيئته فذلك المؤمن»، «قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، غريبٌ من هذا الوجه».

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم، ص ٦٩، ٧٠، وطالع شرح الحديث فيه فإنه مفيد جداً.

«وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»[1].

«وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويدُ الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار»[2].

وقال الإمام ابن العربي في شرح هذه الأحاديث: «وقد روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ومن مات وليس عليه إمام، مات ميتة جاهلية، ومن مات تحت راية عمّيّة، يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتلته قِتلةٌ جاهلية».

«وروى أبو داود عن أبي مالك الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أجاركم من ثلاث خلال: لا يدعو عليكم نبيكم، فتهلكوا جميعاً؛ وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق؛ وألا يجتمعوا على ضلالة»[3].

«وقال الإمام المناوي في شرح حديث: «يد الله على الجماعة»، وفي رواية: «مع الجماعة»، أي: حفظه ووقايته وكلاءته عليهم، قال الزمخشري: يعني أن جماعة أهل الإسلام في

---

(١) قال الإمام الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

(٢) قال الإمام الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) انظر صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي: ٨/٩ ـ ١٢.

كنف الله، ووقايته فوقهم، فأقيموا في كنف الله بين ظهرانيهم ولا تفارقوهم».

«وقال الإمام الطيبي: معنى على كمعنى فوق في آية: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، فهو كناية عن النصرة والغلبة، لأن من تابع الإمام الحقّ فكأنما تابع الله، ومن تابع الله نصره، وخذل أعداءه، أي: هو ناصرهم، ومصيّرهم غالبين على من سواهم»[1].

هذه بعض الأدلة من السنة المطهرة، التي تؤكد وجوب وحدة المسلمين، وتحذّر الأمة من التفرق والاختلاف، الذي هو سبب الضعف، وذهاب القوة، وخضد الشوكة.. وتبين هذه الأدلة بوضوح أن البلاء والمحن، وتسلط الأعداء، لن يقع شيء من هذا في هذه الأمة ما دام صفها واحداً، ويدها واحدة.. ولن يبلغ كيد عدوها أن ينفذ إلى كيانها ما دام صفها متراصّاً، وبنيانها مرصوصاً.. وكانت على قلب رجل واحد..

* * *

(ج) الأدلة من أقوال الصحابة ومواقفهم:

نعرض من هذه الأدلة ما يلي:

١ ـ أخرج البيهقي (١٤٥/٨) عن ابن إسحاق في خطبة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يوم سقيفة بني ساعدة، قال:

«وإنه لا يحلّ أن يكون للمسلمين أميران، فإنه مهما يكن

---

(١) انظر فيض القدير بشرح الجامع الصغير للإمام المناوي: ٤٥٩/٦.

ذلك يختلف أمرهم، وأحكامهم، وتتفرق جماعتهم، ويتنازعوا فيما بينهم، هنالك تترك السنة، وتظهر البدعة، وتعظم الفتنة، وليس لأحدٍ على ذلك صلاح».

٢ ــ وأخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال:

«يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة، فإنّ الله عزّ وجلّ، لم يخلق شيئاً، إلا خلق له نهاية ينتهي إليها، وإن الإسلام قد أقبل له ثبات، وإنه يوشك أن يبلغ نهايته، ثم يزيد وينقص إلى يوم القيامة...».

٣ ــ وبلغ أبا ذر، رضي الله عنه، وهو في منى، أن عثمان، رضي الله عنه، صلّى أربعاً ــ أي لم يقصر الرباعية، فاشتدّ ذلك عليه، وقال قولاً شديداً، وقال: صليت مع رسول الله ﷺ فصلى ركعتين، وصليت مع أبي بكر وعمر، ثم قام أبو ذر، رضي الله عنه، فصلّى أربعاً، فقيل له: عبت على أمير المؤمنين شيئاً، ثم تصنعه، قال: الخلاف أشدّ. إن رسول الله ﷺ خطبنا فقال: إنه كائن بعدي سلطان فلا تذلوه، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وليس بمقبول منه توبة حتى يسدّ ثلمته التي ثلم، وليس بفاعل، ثم يعود فيكون فيمن يعزّه...»[1]. وربقة الإسلام: كناية عن عهد الإسلام، وحدوده، وأحكامه، وأوامره ونواهيه.

٤ ــ وظهرت من بعض الصحابة ظاهرة اختلاف في بعض

---

(١) انظر هذه الآثار في حياة الصحابة: ٢/٧، فما بعد.

السرايا على عهد رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام غضبان محمّر الوجه، فقال:

«أذهبتم من عندي جميعاً، ورجعتم متفرقين؟. إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة...»[1].

٥ ـ وفي خطبة لعمر، رضي الله عنه، في خلافته قال:

«إن الله عز وجل، قد جمع على الإسلام أهله، فألّف بين القلوب، وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسد، لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك يحقّ على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم، بين ذوي الرأي منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه، ورضوا به لزم الناس، وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم...»[2].

٦ ـ ومن مواقف الصحابة، رضي الله عنهم، التي تدل على حرصهم الشديد على اجتماع الكلمة، أنهم بعد وفاة رسول الله ﷺ أخّروا دفنه ﷺ، حتى اجتمعت كلمتهم على اختيار أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، خليفة بعده.. وبايعوه بالخلافة[3]...

٧ ـ وأخرج البخاري، رحمه الله، عن أبي بكر، رضي

---

(١) المرجع السابق: ٢/٥١.

(٢) المرجع السابق: ٢/٥٠.

(٣) انظر خبر ذلك وتفصيله في حياة الصحابة: ٢/١٠، فما بعد.

الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ، على المنبر، والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، يقول:

«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1].

فكان كما أخبر النبي ﷺ، فقد بويع الحسن بالخلافة بعد مقتل أبيه، رضي الله عنهما، فأقام فيها ستة أشهر وأياماً، ثم نزل عنها لمعاوية، رضي الله عنه، بشروط من أهمها أن لا يطالب أحداً من أهل المدينة، والحجاز والعراق، بشيء مما كان أيام أبيه... فأجابه معاوية إلى ما طلب واصطلحا على ذلك، فظهرت المعجزة النبوية في قوله ﷺ: «يصلح الله به بين فئتين من المسلمين». وقد قال في ذلك، رضي الله عنه: «... فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى، وحقن دماء أمة محمد ﷺ...»[2].

وقد هدأت الأحوال على أثر ذلك، وسمى المسلمون ذلك العام، وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة: «عام الجماعة»[3] لاجتماع كلمة المسلمين، ووحدة كلمتهم.. والتئام شملهم...

٨ ــ ولعل بعض الناس يستشكل على ما نقول من حرص الصحابة، رضي الله عنهم، على اجتماع الكلمة، بما حدث في خلافة علي، رضي الله عنه، من اقتتال بين الصحابة، رضي الله

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي، ص ١٨٨.

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي، ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) انظر كتاب «الخلفاء الراشدون»: عبد الوهاب النجار، ص ٤٦٩.

عنهم، في موقعة الجمل، وموقعة صفين، وقد أدّى ذلك إلى اختلاف الأمة، وظهور الفرق الخارجة عن الجماعة، كالخوارج، والشيعة، وقد كان ذلك مبدأ حدوث الفتن التي استطارت في حياة الأمة، واكتوت بنارها قروناً طويلة..

والجواب عن ذلك، أن ما حدث دليل على حرص الصحابة، رضي الله عنهم، على اجتماع الكلمة، وبخاصة إذا لاحظنا أن جمهور الصحابة كان مع علي، رضي الله عنه، فقد كان علي، رضي الله عنه، هو الإمام الحق الذي انعقدت له بيعة المسلمين، فالقتال معه قتال مع الإمام الحق، وقتاله لمن خالفه كان حرصاً على وحدة الأمة، واجتماع شملها.. فموقفه واضح.. وهو الحقّ الذي لا غبار عليه، ولا لبس فيه، ومن خالفه كان مجتهداً متأوّلاً فيما فعل، لم يكن يريد عرضاً من الدنيا، أو شيئاً من حطامها، ولكنه اجتهد فأخطأ..

ولئن آل الأمر إلى ما آل إليه من ظهور الفرق، وحدوث الفتن، واختلاف الأمة بعد هذه الفتنة، فذلك قدر الله تعالى، ولا رادّ لما قضاه سبحانه، ولله في خلقه شؤون: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور﴾[1].

على أننا لا ننسى أن عدداً غير قليل من الصحابة، رضي الله عنهم، رأوا فيما حدث فتنة عظيمة، وباباً خطيراً، يجرّ إلى فرقة الأمة، واختلاف كلمتها.. وحفظوا في ذلك أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ، تأمرهم باعتزال الفتن، والقعود عن الاشتراك فيها،

(١) من سورة الملك، الآية: ٢.

فاعتزلوا القتال، ولزموا البيوت، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. وكان ذلك منهم اجتهاداً في فهم الموقف، ليس أولى بالصواب مما فعل علي، رضي الله عنه، ومن كان معه..

يقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، في تحليل هذا الواقع التاريخي وما نجم عنه من التفرق والاختلاف في صفوف الأمة، ومبررات الموقف الحق من الفرق التي شذّت عن أهل السنة والجماعة:

«... من والى موافِقه، وعادى مخالِفه، وفرّق بين جماعة المسلمين، وكفّر وفسّق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحلّ قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات..

«ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع «الخوارج» المارقون، وقد صحّ الحديث في الخوارج عن النبي ﷺ من عشرة أوجه، خرّجها مسلم في صحيحه، وخرّج البخاري منها غير وجه..

«وقد قاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلم يختلفوا في قتالهم، كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين...

«فالخوارج لما فارقوا جماعة المسلمين، وكفّروهم، واستحلوا قتالهم، جاءت السنة بما جاء فيهم، كقول النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام

كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة». «وزاد سعيد بن مسروق في روايته: يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»، وهو مما أخبر به، ﷺ، من المغيبات، فوقع كما قال»[1].

«وقد كان أولهم خرج على عهد رسول الله ﷺ، فلما رأى قسمة النبي ﷺ، قال: «يا محمد، إعدل، فإنك لم تعدل، فقال له النبي ﷺ: «لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»، فقال له بعض أصحابه: «دعني يا رسول الله، أضرب عنق هذا المنافق فقال: «إنه يخرج من ضئضىء هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم...»[2] الحديث. وضئضىء: أي نسل وعقب.

«فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظنّ والهوى، كما طعن إبليس في أمر ربه، برأيه وهواه»[3].

---

(١) انظر فتح الباري: ٦٩/٨.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب المغازي، انظر فتح الباري: ج ٨ حديث ٤٣٥١، وفيه: «فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمّر الإزار». وقال ابن حجر في تعريفه: «هذا الرجل هو ذو الخويصرة التميمي، كما تقدّم صريحاً في علامات النبوة، من وجه آخر، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، وعند أبي داود: اسمه نافع، ورجّحه السهيلي، وقيل: اسمه حرقوص بن زهير السعدي، وسيأتي تحرير ذلك في كتاب استتابة المرتدين»، ثم حقق في كتاب استتابة المرتدين أنه في هذه الحادثة «ذو الخويصرة...». انظر فتح الباري: ٢٩٠/١٢.

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٤٩/٣، ٣٥٠.

وهذا الطعن في السنة بالرأي والهوى، هو مبدأ استحلال الخروج على الجماعة، وشقّ عصا الطاعة، وتفريق صف الأمة، وتمزيق وحدتها. . .

* * *

ونصل إلى الحديث عن النوع الثاني من الأدلة على وجوب وحدة المسلمين، وهي:

الأدلة الاجتهادية الاستنباطية

وتشمل:

(أ) الأدلة التي تعود إلى القواعد الشرعية، والأصول العامة، وفهم روح التشريع ومقاصده الكلية. .

(ب) الأدلة المستفادة من المسار التاريخي لهذه الأمة، وواقعها المعاصر.

(أ) أما الأدلة التي تعود إلى القواعد الشرعية، والأصول العامة، وفهم روح الإسلام ومقاصده الكلية، فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ــ إن أول ما نلاحظه، أن الله سبحانه لم يخاطب المؤمنين في كتابه إلا بوصف الجماعة، وصيغة الجمع. . ولم يعهد إليهم إلا بوصف الجماعة، ولم يتحدث عنهم إلا بصفة الجماعة، فمن ذلك قوله تعالى:

- ﴿يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه، وأنتم تسمعون﴾[1].
- ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[2].
- ﴿... إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾[3].
- ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سيجعل لهم الرحمٰن ودّاً﴾[4].
- ﴿إنما المؤمنون، الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا...﴾[5].

وهذه ملاحظة عامة عموماً مطلقاً لا استثناء لها.. وتدلّ دلالة واضحة أن الله تعالى يريد للمسلمين أن يكونوا أمة واحدة، وأن تكون حياتهم ضمن جماعة تقوم علاقاتها على نظام ينسجم مع عقيدتها وتصوراتها وسلوكها.. ويحقّق أهدافها، ويصلها إلى الغاية التي يريدها الله لها، إذ أرادها خير أمة أخرجت للناس.. وتمتاز عما سواها من الأمم والجماعات، بما يبوّئها مكان القيادة والريادة لأمم الأرض كلها..

---

(١) من سورة الأنفال، الآية: ٢٠.
(٢) من سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٣) من سورة العصر، الآية: ٣.
(٤) من سورة مريم، الآية: ٩٦.
(٥) من سورة الحجرات، الآية: ١٥.

ومن هنا أوجب الإسلام على كل مسلم ألا يعيش فرداً تائهاً، لا صلة له بجماعة المسلمين، ولا يسهم في تكوينها وبنائها.. بل فرض عليه أن ينتمي إلى الأمة الإسلامية ويبايع الإمام الذي يمثلها، وهو رمز وحدتها واجتماع كلمتها؛ ويقبل بسلطته، ويلتزمها في حدود شريعة الله تعالى.

جاء في الحديث الصحيح: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1].

ويعني هذا الحديث وجوب الالتزام بسلطة الحكومة الشرعية، والانتماء إلى الدولة التي تقوم على الإسلام، وتجمع شمل المسلمين، وتوحّد كلمتهم..

كما يعني أيضاً: تحريم الانعزالية الفردية، الخارجة عن الارتباط بالجماعة، المتمردة على كل حكم أو سلطة، لما يؤدي إليه ذلك ـ إذا عمّ وشاع ـ من الفوضى وانقسام الأمة وتفرقها، وتوقف إقامة أحكام الشريعة، وفقدان المجتمع المسلم.. الذي هو الصورة العملية للإسلام بعقيدته وشريعته وأمته..

هذا من جهة...

ومن جهة أخرى: قَطَعَ الإسلام ولاية التناصر عن المسلم الذي يأبى التحوّل إلى دار الإسلام، ويرضى بالحياة بين ظهراني المشركين.. وهو قادر على الهجرة والانتقال من دار الكفر.. وفي

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام مسلم /١٨٥١/ انظر رياض الصالحين الطبعة المحققة من ٢٤١.

الحديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين، لا تتراءى ناراهم».

بينما عقد الله الأخوّة والولاية والتناصر بين المهاجرين والأنصار، وجعلهم أمة واحدة، ويداً واحدة على من سواهم، فقال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، فهذان الصنفان يشكلون صفاً واحداً، وبنياناً مرصوصاً، يتناصرون، ويتعاونون على البرّ والتقوى، وبهم يتكوّن المجتمع المسلم؛ ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾، أي: لم ينتموا إلى أمة الإسلام، ولم يعيشوا في مجتمعها، ولم يتعاونوا في تكوينها وبنائها؛ ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا...﴾: وهم لا يستحقون النصرة على الكافرين الذين بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق؛ ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير...﴾[1].

وهذا صنف ثالث، يكفي في التنفير منه، أن جعله الله سبحانه قسيماً للمؤمنين من المهاجرين والأنصار، له أحكام خاصة، ولا ولاية بينه وبينهم ولا تناصر..

وهذا التصنيف يؤكد على وجوب وحدة المسلمين، وأن يكونوا يداً واحدة على من سواهم...

* * *

(١) من سورة الأنفال، الآية: ٧٢. وانظر تفسيرها في تفسير ابن كثير، رحمه الله.

٢ ـ ومن الأدلة على وجوب وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم: أن الإسلام كوّن من المسلمين من أول يوم.. أمّة واحدة، متميزة بخصائصها عن سائر الأمم والشعوب، لها تكوينها المتميز، ومقوّماتها الخاصة، وروابطها التي تنفرد بها عن أي تكوين بشريّ آخر..

ولقد كان من أول الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، كتابة الوثيقة، بين المسلمين، وبين اليهود المقيمين في المدينة.

وتعدّ هذه الوثيقة إعلاناً دستورياً، ينظم الدولة الإسلامية الفتية، ويوضح علاقة المسلمين بغيرهم، وما لغيرهم من الحقوق، وما عليهم من الالتزامات، كما يحدّد السلطة في هذه الدولة، والقيادة التي تحكمها..

وقد جاء في نصوص هذه الوثيقة:

ـ «المسلمون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أمّةٌ واحدة من دون الناس...».

ـ «وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم ـ الدسيعة: العظيمة، والمراد: ما ينال منهم من ظلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم...».

ـ «ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس».

ـ «وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله . . .».

ـ «وإن المؤمنين المتقين، على أحسن هدى وأقومه . . .».

ـ «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ . . .»[1].

ولقد دلت هذه الوثيقة على حقائق عظيمة، من أهمها:

- أن وحدة المسلمين هي أول أساس يقوم عليه تكوينهم كأمة متميزة لها كيانها الخاص، ومقوماتها الذاتية المتفردة، التي تقيم عليها دولتها، وتحقق بها سيادتها . .

«والأمة في المفهوم الإسلامي، مجتمع إنساني، يقوم على الأساس العقائدي المشترك، والإسلام بما يتضمنه من تصور واضح شامل لحقائق الوجود، الغيبي والمشهود، وما يتضمّنه من قواعد سلوكية، وقيم أخلاقية، ونظم تشريعية، هو العامل المشترك بين أفراد هذه الأمة . . .»[2].

- «أن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين، وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة، وعلى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحلّ، ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة . .

---

(١) انظر هذه الوثيقة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٥٠١ ـ ٥٠٣.

(٢) «كتاب نظام الإسلام» الحكم والدولة، للأستاذ محمد المبارك، رحمه الله، ص ١٠٠، باختصار وتصرف يسير.

«وهو أول أساس لا بدّ منه لإقامة مجتمع إسلامي، متماسك سليم...»[(١)].

* * *

٣ ـ ومن الأدلة على وجوب وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم: إجماع الأمة على وجوب نصب الخليفة، لجمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، وصهر شعوبهم وقبائلهم، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في بوتقة النظام الإسلامي، الذي يجمعهم على قيادة واحدة، ويؤلف بين قلوبهم في وحدة متكاملة متجانسة..

يقول الإمام ابن تيمية، رحمه الله:

«يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، لا قيام للدين إلا بها...»[(٢)].

ومن أقوال الفقهاء في وجوب نصب الخليفة لجمع كلمة المسلمين؛ ما قاله الإمامان الماوردي الشافعي، وأبو يعلى الحنبلي: «عقد الإمامة لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»[(٣)].

ويقول الإمام ابن خلدون في مقدمته:

---

(١) «فقه السيرة»: د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٠٧، باختصار يسير، ويلاحظ أن المؤلف اختصر في عرض بعض نصوص الوثيقة اختصاراً أخلّ بمعناها، فينبغي التنبه. وانظر أيضاً «من أصول الفكر السياسي في الإسلام»: د. محمد فتحي عثمان، ص ٣٤١ ـ ٣٤٣.

(٢) «السياسة الشرعية»، ص ١٣٨.

(٣) «الأحكام السلطانية» للماوردي، ص ٣؛ ولأبي يعلى الحنبلي، ص ٣.

«إن نصب الإمام واجب، فقد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، وإلى تسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام»[1].

وحكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإمامة، وقال: «لم يخالف في هذا إلا فرقة من الخوارج هي النجدات، فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمام، إنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم»، ثم قال: «وهذه فرقة ما نرى بقي منهم أحد»[2]، ثم أخذ يرد عليهم..

ويقول الشيخ محمد الخضري، رحمه الله:

«وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ على وجوب إقامة هذا الخليفة، وتابعهم على ذلكَ من بَعدهم من المسلمين، ولم يَشُذ عن هذا الإجماع أحدٌ اللهم إلا بعضاً من الخوارج والأصَمَّ من المعتزلة، قالوا بالاستغناء عنه إذا صلحت الأمة بأن اتّبعت الدين القويم، فعمِلت بالكتاب والسنة، والذي حملهم على ذلك إنما هو الفرار عن المُلْك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لمَّا رأوا الشريعة ممتلئةً بذم ذلك والنعي على أهله ومُرَغِّبةً في رفضه».

---

(١) «مقدمة ابن خلدون»، ص ١٩١.

(٢) «الفصل في الملل والنحل»: ٤/٨٧.

وقال أيضاً تحت عنوان: «عدم تعدد الإمام».

«وكذلك أجمع المسلمون على أنه لا يصح أن يكون لهم في عصر واحد خليفتان، لما يجره ذلك من التنافس والتباغض اللذيْن هما سبب الخسران والوبال، وكفى بما حصل للمسلمين منذ تفرقت كلمتهم وتعدد سلطانهم مانعاً من ذلك، فإن عدوهم تمكن من أن يتصنع لأحدهم ليستعين به على الآخر، فكان ملوك الروم يتقربون من ملوك الأندلس ليكونوا لهم ردءاً مانعاً من تعدي العباسيين عليهم، وصارت الحال تتقهقر من سيىء إلى أسوأ حتى زمننا الذي نجتهد فيه للتقرب ممن يتمنون لنا الفناء والزوال، ولو عرف ملوك الإسلام مصلحتهم، وأزالوا الكبرياء من نفوسهم، فتمسكوا بالدين ما وصلوا إلى هذا الدرْك الأسفل، إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الألباب»[1].

ويقول الأستاذ محمد المبارك، رحمه الله تعالى:

«إسراع كبار أصحابه بعد انتقاله إلى ربه لاختيار أمير للمسلمين يخلفه في هذه الصفة وعدم إنكار أحد منهم ضرورة اختيار خليفة له يخلفه في رياسة الدولة دليل واضح لكل ذي عينين ولمن عنده مسكة من عقل، على أن إقامة الدولة والاضطلاع بالحكم والسلطة جزء ضروري من الإسلام لا يقوم إلا به ولا يتم إسلام المسلمين بدونه، ومعلوم أن إجماع الصحابة على أمر من

---

(١) «إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء»، ص ٦، ٧، وهذا الإجماع مستنده حديث: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما»، رواه مسلم وأحمد عن أبي سعيد الخدري عن علي والعباس معاً. انظر «كشف الخفاء»: ١/٨٧.

أمور الدين يعتبر دليلاً وحجة على شرعيته ويكفي أن فهمهم للإسلام مرجع للمسلمين بسبب أنهم تلقوه مباشرة عن الرسول المبلّغ ﷺ وعن القرآن الذي نزل بلغتهم وعاشوا في أجواء آياته المنزلة وتوجيهات نبيّه وإرشاداته وفي جو التطبيق العملي لأحكامه.

ولذلك كانت المحاولة التي قام بها بعض المعاصرين بتأثيرات أجنبية كعلي عبد الرازق وأمثاله من ادعاء أن الحكم ليس من الإسلام خروجاً عن جماعة المسلمين بل عن الإسلام، وهي لا تخلو من أحد احتمالين: إغراق في الجهل والغباء أو ضلوع في المؤامرة التي يقوم بها أعداء الإسلام لتحطيمه والحيلولة دون يقظة شعوبه الهادفة لإعادة بنائه وحمل لواء الحضارة من جديد.

وكل سير في تأييد هذا الاتجاه والإشادة بأصحابه موالاة لأعداء الإسلام من المستعمرين والطامعين بالنفوذ في بلاد الإسلام من مختلف الدول والعاملين ظاهراً في هذا الركاب باسم العلم والبحث العلمي.

ولما سبق من الاعتبارات والحجج نرى أن أئمة المسلمين وعلماءهم منذ صدر الإسلام حتى العصر الحاضر أدخلوا باب الإمامة في كتبهم الفقهية وأحياناً في كتب العقيدة وعلم الكلام بسبب ما ثار من الخلاف في طريقة تعيين الإمام مع الاتفاق على الأصل بين الفرق الإسلامية. وهكذا أجمع المسلمون جيلاً بعد جيل منذ عصر الصحابة على أن الحكم من الإسلام وعلى أن الإسلام يستلزم إقامة دولة.

أما أن يكون لبعض أبناء (المسلمين) في عصرنا الحاضر

موقف خاص من الإسلام نفسه أصلاً وبالتالي من حكم الإسلام واصطباغ الدولة الحديثة بصبغة الإسلام فذلك يحدد موقفهم من الإسلام كله باعتباره نظاماً عقائدياً كاملاً ولكنه لا يغير الإسلام نفسه في نظر أي باحث أيّاً كان مذهبه واتجاهه»[1].

* * *

وهكذا، فإن وجوب اجتماع كلمة المسلمين، لا يتحقق إلا باجتماع الأمة على إمام عدل، يحفظ كيانها، ويقوّي شوكتها، ويسوس أمرها بما يصلحها، ويقوم على حفظ الدين ورعايته، وسياسة الدنيا، وتحقيق مصالحها، ويكون رمزاً لوحدة الأمة، وتآلف قلوبها..

وإن الأمة الإسلامية جميعها، تعيش اليوم حالة من اليتم السياسي والروحي منذ فقدت الخلافة الإسلامية، وتشرذمت إلى دويلات، وانتثرت حبات عقدها في قفار ومتاهات.. كالأيتام إذا تولى شأنهم أعدى أعدائهم، فهي تلهث هنا وهناك وراء سراب الفكر والقيم، وفتات ضلالات كل أعمى أصم..

وما أحسن كلمة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، إذ يقول، وكأنه يتحدث عما يعج به عصرنا من جاهليات متكاثرة، تتزيّى بلبوس الفكر والحق، والحرية والعدل.. وهي مزيج نتن متهافت من الظلم والانحراف والشذوذ..

---

(١) «نظام الإسلام» الحكم والدولة، ص ١٦ ــ ١٨، والكتاب يعدّ من أنفس ما كتب في هذا الباب يحرص على قراءته، وينتفع به.

«وهاتان السبيلان الفاسدتان:

«سبيل من انتسب إلى الدين، ولم يكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال، وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب، ولم يقصد بذلك إقامة الدين، هما سبيل المغضوب عليهم والضالين، الأولى: للضالين النصارى، والثانية: للمغضوب عليهم اليهود...».

«وإنما الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهي سبيل نبينا محمد ﷺ، وسبيل خلفائه وأصحابه».

«فإذا كان المقصود بالسلطان والمال هو التقرب إلى الله، كان ذلك صلاح الدين والدنيا، وإن انفرد السلطان عن الدين أو الدين عن السلطان، فسدت أحوال الناس...». وقال، رحمه الله:

«يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتمّ مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس... روى الإمام أحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض، إلا أمروا عليهم أحدهم».

«فأوجب، ﷺ، تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع.

«ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد

والعدل، وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتمّ إلا بالقوة والإمارة..

«فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله...»[1].

فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وواجب جمع كلمة المسلمين، ووحدة صفهم لا يتم إلا بالإمارة فهي واجبة، بل من أعلى الواجبات وآكدها...

* * *

(ب) أما الأدلة المستفادة من المسار التاريخي لهذه الأمة، ومن واقعها المعاصر، فلا بدّ في الحديث عن ذلك من استعراض المراحل التي مرت بها هذه الأمة، في تاريخها السياسي والاجتماعي، من زاوية بحثنا، وهي النظر في وجوب وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم..

أولاً ـ واقع الأمة السياسي والاجتماعي في عهد النبوة، ثم في عهد الخلافة الراشدة:

لقد أقام النبي ﷺ أول دولة للإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة، وكان ﷺ، أول رئيس لتلك الدولة، وقد اجتمعت فيه ﷺ، صفتان: صفة النبوة، والتبليغ عن الله عز وجل، فيما يأتيه من الوحي، وهذه الصفة انتهت بوفاته ﷺ؛ والصفة الثانية: قيادة الأمة، والنظر في مصالحها، وما يعود عليهابالخير والنفع..

(١) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية».

فكانت له تصرفات، ﷺ «تصدر عنه بصفته قائداً وإماماً للمسلمين، ينظر فيها إلى ما يحقق مصالحهم، ويسيّر أمورهم، ويسوس حياتهم، إما عملاً بنصّ شرعي فيها، أو عملاً بالسياسة الشرعية، الموكولة إلى الإمام، المبنية على اعتبار المصالح، ودرء المفاسد، التي تختلف في تقديرها الأفهام، كما هو الشأن في كثير من أحكام السياسة والحكم، وشؤون الغزوات والمعارك، والأحوال الدعوية...»[1].

وقد كانت الأمة في عهده، ﷺ، سوادها الأعظم، وأكثريتها المطلقة، هم المؤمنون الصادقون، من المهاجرين والأنصار، الذين كان رسول الله ﷺ أحبّ إليهم من أنفسهم وأهليهم، وأموالهم وأولادهم، ومن الماء البارد على الظمأ، وكانوا يفدونه بآبائهم وأمهاتهم بلسان حالهم، وعهود لسانهم.. وكانوا لا يقدّمون على قوله وحكمه، قولاً ولا حكماً.. وكانوا رهن الطاعة، وقيد الإشارة، قد حلّ منهم محل الروح من الجسد، واختلط حبه بلحومهم ودمائهم كما اختلط النور بالعيون..

وكانت قلة قليلة ــ من الأمة ــ منافقين، فضحهم الله تعالى في كتابه، وعرّف نبيه ﷺ بدخائل نفوسهم، وخفايا أسرارهم، فكان يعرف أشخاصهم، ويعرفهم بمواقفهم وخروجهم عن الطاعة في كل مناسبة.. وكان من أبرز خلالهم رفض الاحتكام إلى الله ورسوله،

---

(١) من بحث «الأصالة والمعاصرة خصيصتان من خصائص الدعوة للإسلام»، بقلم الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، ص ٩٢ ــ ٩٣، وهو منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية.

والاعتراض على أحكامه ﷺ، والشذوذ عن طاعته، باختلاق المعاذير، والحلف بالله وهم كاذبون..

وكانوا لا يستهان بشرّهم وخطرهم.. وكيدهم ومكرهم، إذ لهم قيادتهم الظاهرة، التي يأتمرون بأوامرها، ويلتزمون بكيدها ومكرها.. ولتلك القيادة قيادتها الخفية من اليهود الذين ترجع إليهم في كل صغيرة أو كبيرة من شأنها.. وقد فضحهم الله في كتابه، فقال سبحانه: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزىء بهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾[1].

لقد كان المنافقون في مجتمع المدينة ــ في حقيقة أمرهم، وخفي مخططاتهم ومكرهم ــ لا يستهان بخطرهم، ولا ينبغي أن يظنّ بحال من الأحوال أن دورهم في المجتمع كان هامشياً أو ثانوياً.. ولكن تماسك المؤمنين الصادقين في إيمانهم، وانتظامهم خلف قيادة النبي ﷺ، وإحكام روابطهم، وكمال وعيهم وإخلاصهم ونصحهم لله ولرسوله.. كل ذلك أعجز المنافقين عن أن تنفذ مخططاتهم إلى جسم الأمة فتفتته، أو أن تنشر فيه أوبئتها الخبيثة المزمنة..

وإن الذي ينظر في القرآن الكريم، والسيرة النبوية العطرة، نظرة متأملة لمواقف المنافقين، ومؤامراتهم مع اليهود على

---

(١) من سورة البقرة، الآيتان: ١٤، ١٥.

رسول الله ﷺ ودعوته، وعلى المؤمنين واجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم.. ليصل إلى هذه النتيجة بكل سهولة..

لقد كان المنافقون ـ باختصار ـ لا تكاد تحبط لهم مؤامرة، حتى يسعوا في غيرها، ولا تهدأ لهم فتنة حتى يخبّوا في مثيلتها ويضعوا.. بل كانت جهودهم المفسدة تعمل في منافذ متعددة.. ولكنها في كل مرة تبوء بالخيبة، وتتحطّم على تماسك المؤمنين مع رسول الله ﷺ واجتماع شملهم، كما تتحطم الموجة العاتية الهوجاء على صخرة عظيمة، تقف في طريقها، وتحول دون إفسادها وتدميرها، فتحيلها إلى رذاذ منثور..

فلقد كوّن النبي ﷺ من المؤمنين الصادقين أمة كالجسد الواحد، كانت تلتفّ حول قيادة النبي ﷺ وطاعته، كما تحيط الكواكب السيارة بالشمس، وتدور في فلكها، وتلتزم مساراتها لا تحيد عنها شعرة.. وتشكل معها وحدة متكاملة لا تزيغ عنها ولا تختلّ..

وإن حديث النبي ﷺ الذي يضرب مثلاً للمؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم بمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[1]، هذا الحديث يصور حقيقة واقعة، ومجتمعاً تحقق على يدي محمد ﷺ، ويقدّم الصورة المثلى، التي ينبغي أن يطمح إلى تحقيقها في كل زمان ومكان الدعاة والمربون، وهي في الوقت نفسه تعدّ ميزاناً لنجاحهم في دعوتهم، ومقياساً للقيام بمهمتهم على أكمل وجه..

---

(١) رواه البخاري: ١٠/٣٦٧؛ ومسلم: ٢٥٨٦؛ والإمام أحمد: ٤/٢٧٠.

فتمثيل المؤمنين بالجسد الواحد، له دلالته العميقة، وإيحاءاته العديدة الدقيقة، وهو أبلغ تمثيل، وأدق تصوير، إذ الجسد الواحد، له روح واحدة... وله نفس واحدة، وإذا فقد الجسد إحساسه بإصابة بعض أعضائه، فهذا يعود إلى علة في الجسد، أو علة في الروح.. وعندما يكون المؤمنون كالجسد الواحد.. فهذا يعني أيضاً أنهم روح واحدة، ونفس واحدة.. لا نفوس متباينة متفاوتة.. وهذا يعني بدوره أن المساحة بين النفوس التي تبرز بها «الأنا» وتتضخم وتتضخّم، وتقدس وتعظّم ـ في نفس صاحبها على الأقل، وفي أول الأمر ـ حتى تطغى على الأمة كلها.. وحتى تسخر حقوقها لخدمة النفس الواحدة.. أن المساحة هذه.. متلاشية معدومة.. فلم تعد إلا نفساً واحدة، تهيمن عليها روح واحدة.. وتتمثل في جسد واحد، يعمل بدقة ونظام، واتصال بين أجهزته وأجزائه محكم وثيق..

لقد قام المجتمع في المدينة المنورة على ركيزتين عظيمتين:

الأولى: الإيمان بالله تعالى إيماناً تمثل في التقوى بأعلى صورها، والخشية لله، واليقظة والمراقبة، بصورة لم تعرفها البشرية في غير هذا الجيل من الناس..

والثانية: الأخوّة في الله، التي تمثلت في الحبّ الفياض الرائق، والود العذب الجميل، والتكافل الجاد العميق، وغياب «الأنا» من بين النفوس، وزوال الحواجز من بين القلوب، حتى كان الرجل إذا حجبه جدار أو شجرة عن أخيه عاد إلى إلقاء السلام

عليه، وتشابكت يده بيده.. وكان الرجل لا يرى نفسه أولى بماله من أخيه.. ويحرم نفسه وعياله ويواسي أصحابه وإخوانه.. لقد بلغت الجماعة في ذلك كله مبلغاً، لولا أنه وقع لعدّ من أحلام الحالمين، وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة، وهي قصة وقعت في هذه الأرض، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان».

«وعلى مثل ذلك الإيمان، ومثل هذه الأخوة، يقوم منهج الله في الأرض، في كل زمان»[1].

وهذه الأخوة في الله، أوجدتها بإذن الله وعنايته، قيادة روحية عالية الاستعداد والكفاءة، ورعتها وسهرت على تكوينها وتنشئتها، حتى استوت على سوقها، وآتت ثمراتها كل حين بإذن ربها..

ثم جاءت الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، كما أخبر النبي ﷺ وبشّر.. جاءت ليبدأ مع ظهورها عهد القيادة الإسلامية للعالم، هذه القيادة التي عزلت القيادات المريضة عن زعامة الإنسانية، والسير بها في ظلمات الجاهلية وتخبّطاتها.. وانطلقت بالإنسانية تسير بها سيراً حثيثاً، متزناً عادلاً.

وقد توفرت في القيادة الإسلامية صفات تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلّ تلك القيادة، وتحت رعايتها.

---

(١) «في ظلال القرآن»: ١/٤٤٥، باختصار وزيادة، وتصرف يسير.

فمن أهمّ هذه الصفات التي توفرت في القيادة الإسلامية، والأمة الإسلامية كذلك:

أولاً: أنهم أصحاب كتاب منزل، وشريعة إلـهية حقّة، هي خاتمة الرسالات والشرائـع.. فلا يقنّنون، ولا يشترعون من عند أنفسهم، لأن ذلك منبـع الجهل والخطأ والظلم، ولا يسيرون على أهوائهم، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم، ومعاملتهم للناس خبط عشواء..

ثانياً: أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية، وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد، ورجال الحكومة، في الماضي والحاضر، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ، وإشرافه الدقيق، يزكيهم ويؤدبهم، ويـأخذهم بـالزهـد والورع والعفـاف والأمانة، والإيثار على النفس، وخشية الله، وعـدم الاستشراف لـلإمارة والحـرص عليها.. فكـانوا لا يتهـافتون على الـوظائف والمناصب تهافت الفراشة على الضوء بل كانوا يتدافعون في قبولها، ويتحرجون من تقلدها، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة، ويزكوا أنفسهم، وينشروا دعاية لها، وينفقوا الأموال سعياً وراءها، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس، لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد.. بل عدوه أمانة في عنقهم، وامتحاناً من الله، وهم يعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسؤولون عن الدقيق والجليل من أعمالهم..

ثالثاً: أنهم كانوا أصحاب رسالة وحملة دعوة، قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى

سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان، واستبداد الطغيان إلى عدل الإسلام.. لم يخرجوا ليؤسّسوا امبراطورية عربية، وينقلوا الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب.

إنهم لم يبخلوا بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة نسباً أو لوناً أو وطناً، بل كانوا كسحابة غيث عمت البلاد، وتساوى في الانتفاع بها العباد..

رابعاً: أنهم وازنوا بين جسم الإنسان وروحه، وعقله وعواطفه، فالإنسان لا يسعد ولا يفلح ولا يرقىٰ رقياً متزناً عادلاً، حتى تنمو فيه هذه القوى كلها، نموّاً متناسباً لائقاً بها، ولا يمكن أن توجد المدينة الصالحة، إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي، يحقق للإنسان كماله الإنساني، وقد أثبت الواقع التاريخي أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة، وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة، فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيتهم، وتضخم وظهر في مظاهر كثيرة، وفي أشكال متنوعة، واستفحل واستشرى، حتى تعود الحياة مادية جاهلية..

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يمتازون بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها.

إننا لم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في

جميع النواحي، من دور الخلافة الراشدة، فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق، والدين والعلم، والأدوات المادية، في تنشئة الإنسان الكامل، وفي ظهور المدنية الصالحة..

كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح، وتقدم الحضارة، فتقل الجنايات، وتندر الجرائم، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة، والجماعة بالفرد، وهو دور كمالي، لم يحلم الإنسان بأرقى منه، ولم يفترض المفترضون أزهى منه..

ولم يكن ذلك إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم، ويشرفون على المدنية، بعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم في الحكم وسياستهم..

فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية، أينما كانوا أعفّة أمناء، خاشعين متواضعين، حكاماً كانوا أو رعايا، أو شرطة أو جنوداً..

يصف رجل من كبار الروم جنود المسلمين، فيقول: «إنهم يقومون الليل، ويصومون النهار ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم...»[1].

ويقول الآخر: «... لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن..

(١) رواه أحمد بن مروان المالكي في المجالسة.

ولا يدخلون إلا بسلام، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه. . .»[1].

ويزيد الثالث: «لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. . .»[2].

ويغنم الجند في المدائن تاج كسرى، وبساطه، وهو يساوي مئات الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد، ولا تشح نفس. . ويسلمونه إلى الأمير، فيرسله إلى خليفة المسلمين، فيتعجب ويقول: «إن قوماً أدوا هذا لأمناء»[3].

إن هؤلاء الرجال من أصحاب محمد ﷺ، كانوا خليقين أن يسعد النوع الإنساني في ظلّهم، وتحت حكمهم، وأن يسير بقيادتهم، سديد الخطى، رشيد الغاية، مستقيم السيرة، وأن يعمر العالم، وتخصب الأرض وتزدهر، لأنهم كانوا خير القائمين على مصالحها، الحارسين لها. .

إنهم لم ينظروا إلى الدنيا كأنها مائدة ممدودة، فيتهالكون عليها، وإلى ما في الأرض من نعماء وخزائن وخيرات، كأنها مال سائب، يتقاتلون عليه، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون إلى اقتناصها. . بل يعدون الحياة نعمةً من الله، يتقربون فيها إلى الله، ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم، وفرصةً من العمل والجهاد لا فرصة بعدها. .

---

(١) «البداية والنهاية»: ٥٣/٧.

(٢) «البداية والنهاية»: ١٦/٧.

(٣) سيرة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لابن الجوزي.

ويعدون هذا العالم مملكة لله، استخلفهم فيها:

أولاً: من حيث أصل الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1]، ﴿هو أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها...﴾[2]، ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...﴾[3].

ثانياً: من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله، وانقاد لحكمه، فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهلها: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني، لا يشركون بي شيئاً﴾[4].

لقد جعل الله لهم الولاية على أمم الأرض، يراقبون سيرها، وسيرتها وأخلاقها، فيرشدون الضالّ، ويردون الغويّ، ويصلحون الفاسد، ويرأبون الصدع، ويأخذون للضعيف من القوي، وينتصفون للمظلوم من الظالم، ويقيمون في الأرض القسط، ويبسطون على العالم جناح الأمن: ﴿كنتم خير أمة أخرِجَت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[5]، ﴿يا أيها

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) من سورة هود، الآية: ٦١.

(٣) من سورة الحديد، الآية: ٧.

(٤) من سورة النور، الآية: ٥٥.

(٥) من سورة آل عمران، الآية: ١١٠. وقد استفدت أفكار الحديث عن دور الخلافة الراشدة في قيادة البشرية، من كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، ص ١٢٥ ـ ١٣٣.

الذين آمنوا، كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا، اعدلوا، هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾[1].

وإذا أردنا أن نلخّص خصائص هذه المرحلة الزاهرة في حياة الإنسانية كلها، والتي كانت القوة الدافعة لما تأسس بعدها من حضارة إسلامية فريدة، شملت الإنسانية كلها بالخير والعطاء، فيمكننا أن نحدّد ذلك بالنقاط التالية:

١ ــ اجتماع كلمة الأمّة كلها على قيادة واحدة، اجتمعت فيها الزعامة السياسية والقيادة الدينية في آن واحد، واستطاعت أن توجّه طاقات الأمة وقدراتها في الاتجاه الصحيح لبناء الدولة الإسلامية الراشدة.

٢ ــ هيمنة الخليفة تنظيمياً وإدارياً، وروحياً على أجزاء الدولة، وبسط هيبة الدين وسلطانه على شؤون الحياة كلها، وعلى أبناء الأمة كبيرهم وصغيرهم على حدّ سواء..

ولقد كان أول تحدّ واجه الخلافة أول ما قامت موقف المرتدين ومانعي الزكاة، ولكن قوة الصديق، رضي الله عنه في الحق، وحزمه وبصيرته في معالجة هذا الموقف، ردّ إلى الأمة هيبتها، وحفظ عليها وحدتها واجتماع كلمتها، وكسر شوكة الخارجيين عن إجماعها، وأعادهم إلى حظيرة الإسلام.. وإلا فماذا يحدث، لو أن الصديق تراخى في هذا

---

(١) من سورة المائدة، الآية: ٨.

الموقف؟ لقد كانت الدولة الراشدة ستبدأ بداية ضعيفة متراخية.. سرعان ما ينتقض أمرها، ويتبدّد نظامها..

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يبلغه الأمر عن أحد عماله على بعض الأمصار، فيرسل له كتاباً مختصراً؛ إذا أتاك كتابي هذا فائتني والسلام.. فلا يسع ذلك العامل إلا أن يتوجه إلى دار الخلافة، عقيب قراءة كتاب أمير المؤمنين مباشرة، في أي ساعة من ساعات ليله أو نهاره.. وإذا لم يجد الركوب توجه ماشياً.. كما حدث مع سعيد بن عامر، رضي الله عنه..

ثم كان التحدي الثاني؛ خروج الثائرين على عثمان، رضي الله عنه.. وما كان وراء ذلك من مخطط يهودي على يد ابن سبأ.. كان يراد منه تفريق أمر الأمة، وتمزيق وحدتها واجتماع كلمتها على الخليفة الذي يسوسها بكتاب ربها، وسنة نبيه ﷺ..

وإذا كان لنا أن نتساءل، فهل الصديق أو الفاروق لو كان أحدهما حيّاً يتصرف بالطريقة التي عالج بها عثمان، رضي الله عنه، الموقف.. لقد رأى، رضي الله عنه، في ذلك فتنة آثر ألا تراق دماء المسلمين بسببه.. فرجح أن يذهب شهيداً بنفسه، ولا تراق لأجله الدماء.. ولكن الواقع أنّ وحدة الأمة، واجتماع شملها بالخلافة الراشدة، هو المستهدف من وراء هذا الخروج الأثيم على الخليفة وإهدار دمه..

ثم كان التحدي الثالث؛ للخلافة الراشدة، على عهد علي، رضي الله عنه، بخروج الخوارج.. واختلاف معاوية،

رضي الله عنه، معه.. ثم كان ما كان، وتحوّلت الخلافة إلى ملك وراثي.. ابتعد عن حقيقة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة في أمور عديدة..

ولقد كان قتال علي، رضي الله عنه في وجه من وجوهه، وحقيقة من حقائقه دفاعاً مخلصاً عن منهج الخلافة الراشدة، في حراسة الدين، وسياسة الدنيا..

ومع غياب منهج الخلافة الراشدة، دبّ دبيب الفرقة والاختلاف، وذرّت الفتن قرنها في حياة هذه الأمة، ونبتت بذور الفرقة والاختلاف.. وقامت على سوقها، ونشرت أوراقها، ثم آتت ثمراتها في تمزيق جسد الأمة، وتفريق كلمتها..

ولم يستطع عهد من العهود أن يخمد فتنتها، ويقضي على غائلتها إلا عهد عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، الذي عاد بالأمة إلى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة..

٣ ـ أن الدولة كانت دولة دعوة وجهاد، وتجرد لهذه الغاية، وإخلاص لها، وتفانٍ في سبيلها، وتسخير لطاقات الأمة وإمكاناتها لهذه الغاية العظيمة، والمهمة الغالية.. مع البعد عن ابتغاء المصالح الشخصية، أو الأسرية من وراء المسؤولية، بل إن المسؤولية كانت غرماً عظيماً، وهمّاً كبيراً، لا مغنماً عاجلاً، ولذة حاضرة..

٤ ـ تطويع الدنيا لخدمة الدين، وإقامة دعائمه وأركانه.. فالأمة

أمة هداية، والدولة دولة مسؤولية ورعاية، لا تسلط وجباية..
والسياسة إن لم تخدم الدين وحقائقه ومبادئه وتشريعاته، فهي لن تخدم إلا شهوات النفوس المريضة وأهوائها، ورعوناتها..

٥ ـ القوة في إقامة الحق، والعدل في الحكم، والمساواة بين الرعية كلها، لا فرق بين حاكم ومحكوم، وكبير وصغير.. فالجميع أمام الحق سواء.. وحكم الله تعالى لا يحابي أحداً: «والذي نفس محمّدٍ بيده، لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها»(١).

ويستقدم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عمرو بن العاص، رضي الله عنه، وهو أمير مصر، لأن ابناً له ضرب قبطياً، لأنه سبقه، وقال له: خذها وأنا ابن الأكرمين، فيقتص من الولد أمام أبيه، ثم يقول لعمرو: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»(٢).

فلا استبداد في هذه الدولة ولا استعباد، ولا تجاوز للحق، ولا يخرج كبير أو صغير عن سلطانه..

٦ ـ والاختيار للمسؤوليات، ورعاية مصالح الأمة، والقيام على شؤونها، إنما يكون لأهل الصلاح والاستقامة، مع القدرة والكفاية: ﴿إن خير من استأجرت القويُّ الأمين﴾(٣)، ففي

---

(١) الحادثة رواها الستة، والإمام أحمد والدارمي. انظر المعجم المفهرس: ٢/٤٥٥.
(٢) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لابن الجوزي.
(٣) من سورة القصص، الآية: ٢٦.

ذلك صلاح الدنيا، واستقامة أمر الدين: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة...»[1].

ثانياً ـ واقع الأمة السياسي والاجتماعي بعد عهد الخلافة الراشدة، وما مرّ به من أطوار:

لقد امتاز عهد الخلفاء الراشدين أنه كان يجمع الأمة كلها، على قيادة دينية، وسياسية واحدة، وكان الشعار الذي يحكم الأمة في اختيار الخليفة: «رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا»[2].

ولكن هذه الصورة المتألقة ضعفت يوماً بعد يوم، ثم سرعان ما اختفت من حياة الأمة، وافترقت الإمامة في الدنيا عن الإمامة في الدين، وظهرت آثار هذا الافتراق في حياة الأمة الدينية والسياسية، والاجتماعية والحضارية..

ووجدت شراذم الأمم التي تحقد على الإسلام، وتكيد لأهله، منفذاً تدخل منه إلى كيان هذه الأمة..

فلم يكد ينتهي عصر الخلفاء الراشدين، حتى ظهرت الفرق

---

(١) رواه البخاري، علم: ٢؛ والإمام أحمد: ٣٦١/٣. انظر المعجم المفهرس: ٢٠٤/٧.

(٢) قيلت هذه الكلمة بمناسبة اختيار أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، للخلافة، إذ إن رسول الله ﷺ أبى في مرضه الذي توفي فيه إلا أن يؤم الناس أبو بكر، رضي الله عنه، فاستنتج بعض الصحابة من ذلك تقديم أبي بكر، رضي الله عنه، في أمر الدنيا كما قدّمه رسول الله ﷺ في أمر الدين.. وكأن هذه الكلمة حكمت هذه الأمة في اختيار الخلفاء الراشدين كلهم، فقد اجتمعت لهم إمامة الدين والدنيا.

التي شذت عن سواد هذه الأمة الأعظم، وخرجت عن صفها، وفرّقت كلمتها.. وكان وراءها أيدٍ يهودية ومجوسية حاقدة، تغذيها وتدفع بها..

ثم استشرى أمر هذه الفرق، واستفحل شرّها، وساعد على ذلك أنها لم تجد من القيادة السياسية لهذه الأمة إلا البطش والقمع، والأخذ والتنكيل، لأنها تخرج على الخلافة، وتنقض العهد، وتشقّ عصا الطاعة.

فهي لم تجد ــ من جهة ــ السلوك الديني الأمثل من الخلفاء والولاة، في إقامة الدين، وإشاعة العدل، وسياسة الأمة بالحق؛ كما لم تجد ــ من جهة أخرى ــ الحوار الفكري المكثف، الذي يجتث شبهاتها، ويقضي على أقاويلها، فلم تكن هناك مواقف من هذا النوع، إلا جهوداً فردية متناثرة، لبعض الأئمة الأعلام، دفعتهم إليها الغيرة على عقيدة سلف هذه الأمة، وسوادها الأعظم، ولم تتخذ حملة قوية عامة، تتناسب مع خطر تلك الفرق، وأنها جرثومة شتات الأمة، وتمزق وحدتها..

على أن كثيراً من الكتاب والباحثين ينظرون إلى فترات متألقة من التاريخ الإسلامي يرونها أحيت روح الخلافة الراشدة، وحكمت على منهاجها في إقامة الحق، وإشاعة العدل، واستقامة السيرة، ودفع مسيرة هذه الأمة في مدّ حضاري وجهادي يردّ لها هيبتها بين الأمم، ويعيد إليها اعتبارها ومكانتها.. كالأيام التي شهدتها الأمة على عهد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، قاهر الصليبيين، والظاهر بيبرس، وقطز

قاهر التتار.. والسلطان محمد الفاتح، الذي فتح القسطنطينية، وقاد المد الإسلامي إلى داخل أوروبا..

ينظر كثير من الكتاب والباحثين إلى هذه الفترات المتألقة من التاريخ الإسلامي.. فيلحقونها بالخلافة الراشدة، ويعدونها منها.. وهي كذلك من بعض الوجوه..

ولكنها لم تتخذ ـ أكثرها ـ إلا صبغة شخصية تتبع مواهب الرجل الذي قاد تلك المرحلة، وحقق ما حقق فيها، ولم تأخذ شكل تيار يشمل كيان الأمة، وينتظم أمرها من جهة..

ومن جهة أخرى، أن تلك الفترات، كانت تمثّل مواقف وردود فعل لتحديات معينة، واجهتها الأمة من أعدائها، فلم تستطع تلك الشخصيات في الفترات التي قادت فيها الجمهور الأعظم من هذه الأمة، لم تستطع أن تحقق لهذه الأمة اجتماع الكلمة بصورته المثلى، وحقيقته المطلوبة، على أن بعضها حقّق قدراً لا يستهان به في هذا السبيل، ولكن عمله كان يتسم بالعلاج الوقتي، وينقصه التمام، والاستمرار، ممن جاء بعده، لتحقيق الغاية نفسها..

وعلى الرغم من قصور ما تحقّق عن الغاية المطلوبة، فقد كانت ثمرات ذلك في حياة الأمة، وما أدت إليه من بعث ديني، وتجديد لمعالم الإسلام وقيمه ومبادئه، وإحياء لهدي النبي وسنته، ودفعٍ حضاري، وتماسك اجتماعي، وتحصّن سياسي، وعسكري، من الأمم المتألبة على الإسلام والمسلمين..

لقد كانت هذه الثمرات كلها، تثبت أن العزة لهذه الأمة والسيادة، والهيبة لها في قلوب أعدائها، لن يكون لها ذلك إلا

باجتماع كلمتها، وتماسك صفّها، وراء قيادة تقوم على حراسة الدين والدفاع عنه، وسياسة الدنيا وتدبير مصالحها، وتحفظ كيان الأمة من التمزق والضياع..

فإذا كانت هذه الثمرات كلها قد تحققت مع أن وحدة الأمة لم تكن شاملة كاملة، فمن باب أولى أن تكون الثمرات أعظم، والنتائج أتمّ، حين تكون وحدة الأمة، واجتماع كلمتها مماثلاً لصورة ذلك على عهد العصر النبوي، أو الخلافة الراشدة..

وهذا يؤكد لنا أهمية وحدة الأمة، واجتماع كلمتها، وأثر ذلك في حياتها..

مضى عهد الخلافة الراشدة.. وجاءت الدولة الأموية.. ثم تقوّضت الخلافة الأموية.. وجاءت الخلافة العباسية، ثم تشرذمت الخلافة إلى دولٍ وإمارات. لم تخضع للخليفة إلا بالاسم، ومنها ما لم يخضع حتى بالاسم..

ثم قامت الدولة العثمانية، واستطاعت بعد حروب وفتوحات أن تلمّ شعث الأمة الإسلامية ـ أكثرها ـ إلى حدّ كبير..

ولن نستطيع في هذه العجالة أن نتحدّث عن كل عصر بمفرده.. ولكننا نرى ملامح متشابهة تجمع هذه العصور كلها، وتشكل نقاطاً مشتركة مما يتصل بموضوع بحثنا، ويهمنا التوصل إليه، ونجملها فيما يلي:

١ ـ أن كل الدول التي قامت، وورثت ما قبلها، لم تعلن العودة إلى منهج الخلافة الراشدة، ولم تكن تترسم خطاها في

تحقيق المنهج الإسلامي بصورته المثالية، التي أقيمت في عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين.. اللهم إلا تلك العهود التي صنعها رجال أفذاذ سبق أن ألمحنا إليهم، وبيّنّا ما تفترق به عهودهم عن عهد الخلافة الراشدة، وما تتشابه به.

٢ ــ أدرك أعداء الإسلام من اليهود والمجوس، والمنافقين والزنادقة، أنهم لن يستطيعوا كسر شوكة المسلمين، وتحطيم قوتهم، وحسر مدهم الحضاري، إلا ببث الفرقة والخلاف بين صفوفهم:

(أ) فكانت أول فتنة حدثت في حياة الأمة ــ بعد فتنة عبد الله بن سبأ، وما تمخضت عنه في عصر الخلافة الراشدة ــ أن توالى الذين دخلوا في الإسلام لتهديمه من الداخل سواء أكان ذلك على المستوى العقدي، أم على المستوى الفكري، أم على المستوى السياسي.

ولا يخفى أن الجانبين الأول والثاني، إنما يتمخض عنهما الجانب الثالث، لزوم النتيجة لمقدمتها، والمسبب لسببه.. وقد سبق قريباً أن ألمحنا إلى دور الفرق وأثرها على تفريق الأمة، وتمزيق وحدتها..

(ب) وحين كانت الخلافات الداخلية تنخر في جسم الأمة وكيانها كان التراجع عن المدّ الحضاري، قد بدأ يدبّ إلى كيان هذه الأمة، ويظهر في تأثيرها في الأمم حولها..

ولقد كان هذا التراجع عن المّد الحضاري، يظهر للمؤرخ الدقيق، الذي يرصد الظواهر والمتغيرات، التي تكتنف حياة الأمم، ويتنبأ بما ستجرّ إليه، وما سيأتي بعدها..

(ج) وكما أن أول فساد في مضمون الخلافة كان انحرافها عن منهج الخلافة الراشدة فإن أول سابقة فساد في ظاهر الخلافة هو قيام خلافة أخرى للمسلمين في الأندلس..

«فما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية، وما أصاب صورة الرسالة النبوية، حتى عمت البلوى، بأن مُني الإسلام بتمزّق الوحدة السياسية، والانشقاقات الزمنية، فأول ما حدث من هذا النوع، كان في أوائل عهد الدولة، إذ فرّ أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس، حيث أنشأ في قرطبة خلافة[1] منافسة لتلك التي في بغداد، فاعترف مسلمو الأندلس قاطبة بهذه الخلافة، حتى وبرابرة شمال أفريقية..

«ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى في مصر.. هي

---

(١) يعلق الأمير شكيب أرسلان على هذه النقطة بقوله: «الحقيقة هي أن عبد الرحمن الأموي الذي فرّ من وجه بني العباس إلى الغرب، ولحق بالأندلس، وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بهما عن بني العباس، ولقبه المنصور العباسي بصقر قريش، اقتصر في دولته على الإمارة، ولم ينافس العباسيين في الخلافة العامة، بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الأندلس باسم خلفاء بغداد أمام الملوك من بني أمية، إلى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي استفحل شأنه، واتسع سلطانه، واستولى على عدوتي الأندلس وأفريقية، وأوغلت جيوشه في بلاد الإفرنجة، وصار أعظم ملوك زمانه فهو أول من تلقّب من الأمويين في الأندلس بالخليفة، وبايعه مسلمو المغارب بالخلافة» ولكن هذا الكلام لا ينفي أن تكون تلك الدولة منفصلة عن جسم الخلافة في حقيقتها، ولو تظاهرت بغير ذلك في إعلان الخطبة التي تعكس موقفاً سياسياً موقوتاً، فسواء أصرحت من أول أمرها بأنها خلافة أم أنها لم تتمكن من التصريح بذلك إلا عندما قويت شوكتها، واستفحل أمرها...

الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحدرون على ما زعموا من فاطمة بنت الرسول ﷺ. أما الخلفاء العباسيون في بغداد، فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم، حتى صاروا بعد مدة من الزمن، عبيداً مطاويع بين أيدي الترك، العنصر الغريب الداخل عليهم»[1].

حتى الدولة العثمانية، فإنها لم تستطع أن تجمع كلمة المسلمين قاطبة، فبعض أقطار المسلمين لم تخضع لها إلا اسماً، وظاهراً، وبعض الأقطار لم تخضع لها حتى بالاسم، بل بقيت مستقلة عنها، منفصلة عن كيانها..

«وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان في الشرق، إحداهما الدولة المغولية التي أسسها بابر التيموري (سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)، وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم ملوك المسلمين شوكة، وأبهة، وقوّة حربية، واتساع مملكة، وكان أعظمهم «أورنك زيب» وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء، وأوسعهم مملكة، وأعظمهم فتوحاً، وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة، وقد عاش أكثر من تسعين سنة، وحكم خمسين سنة، وتوفي سنة (١١١٨هـ)، أي في فجر القرن الثامن عشر المسيحي...»

«وكانت تصاقب دولتهم في أفغانستان الدولة الصفوية، وكانت راقية متحضرة، ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية،

---

(١) «حاضر العالم الإسلامي»، مقدمة المؤلف لوثروب ستودارد: ١/٧.

وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة، والدفاع عن نفسها مرة أخرى..»

«وأنحصرت هاتان الدولتان في قطرهما، وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب، وفي البلاد الإسلامية فضلاً عن البلاد الأجنبية..»

«أما التحالف والتكتل.. فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال، ذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية، والحكومات الشخصية، ووصى بها الآباء الأبناء...»[1].

وهذا سرّ من أسرار وقوع الشرق في قبضة الغرب، وتمكن الغرب من استعمار الشعوب الإسلامية وقهرها مدة مديدة..

(د) وكان هناك فساد آخر أغرى الطامعين بالولاية والرئاسة، الراغبين بمتع الدنيا وأهوائها العاجلة، ألا وهو ضعف الهيمنة القيادية والإدارية على أجزاء الدولة وأقطارها النائية، مما أغرى ذوي الأطماع والمتنفذين في بسط سيطرتهم، ومدّ نفوذهم، وإنفاذ أهوائهم، والتحكم بعباد الله وظلمهم.. ولعل ذلك كان بداية التقطيع في جسم الأمة، وتفريق كلمتها..

٣ ــ ومما زاد في ضعف الأمة، وتخلخل صفوفها، ركونها إلى الدنيا، وتنافسها فيها، وتبدل أخلاقها التي بها كانت أمة جهاد وفتح، وسيادة في الأرض، وقيادة للأمم..

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» باختصار يسير، ص ١٦٧.

ولقد حذر النبي ﷺ أمته من فتنة الدنيا، وأن تبسط عليهم، فتجعلهم يميلون إليها، ويركنون إلى زهرتها.. ويتوسعون في مباحاتها، فتضعف فيهم جذوة الإيمان، وحرارة الحماسة لهذا الدين، والمضي في سبيل نشره وتبشير الناس به.

ففي الحديث الصحيح: «أبشروا، وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جلس رسول الله ﷺ، على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا، وزينتها»[2].

وعنه، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون.. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء...»[3].

لقد كانت التربية الإيمانية التي أفاضها النبي ﷺ على صحابته الكرام، رضي الله عنهم، والتزكية الأخلاقية التي تعهدهم بها، ونشّأهم عليها، جماعها ومُنّتها في إيثار الآخرة على الأولى وتفوّق المؤمن في العفة والكرامة، والتحرر من أسر الدنيا

---

(١) البخاري: ١١/٢٠٨؛ ومسلم: ٢٩٦١.

(٢) البخاري: ٣/٢٥٨؛ ومسلم: ١٠٥٢ و١٢٣.

(٣) رواه مسلم: ٢٧٤٢.

وشهواتها، وعلوّ الهمّة، والبعد عن سفساف الأمور، والثبات أمام المغريات، والتحدي للمطامع والشهوات.. وحفظ الأمانة والعفّة عند المغنم... وقد وقع في الفتح الإسلامي من ذلك ما لا عهد للتاريخ البشري بمثله مطلقاً، وكان الخلفاء في ذلك أسوة الأمة، ومثلها الأعلى.. وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان، وقوة اليقين، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، والإخلاص لوجهه الكريم..

لقد فتحت الدنيا على المسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولكن التربية النبوية كانت عصمة للأمة من الانزلاق في فتنة الدنيا، والركون إلى الأرض، وترك الجهاد، والاختلاف على الدنيا، والتنافس فيها..

ثم ظهر الترف في العصر الأموي.. مع سعة الرزق، ورغد العيش، وزاد الأمر انتشاراً في حياة الأمة، ضعف القيادة الروحية للخلفاء، فلم يكونوا أسوةً للأمة في إيثار الآخرة، والاعتدال في التمتع بالدنيا، بل انزلقوا وراء متعها وشهواتها، وآثروا العاجلة، وتوسعوا في المباحات، إلى حدّ الإسراف، ثم رتعوا ورتع من معهم.. ومن جاء بعدهم في أموال الأمة إلى حدّ التبذير المحرم..

وكان الإسراف والترف.. وتبديد ثروات الأمة والتبذير فيها، في حياة الخاصة والعامة.. مفسداً إلى حدّ الإتلاف، ونذير سوء لاجتماع كلمة الأمة، وتماسك حضارتها وكيانها..

وعندما عجّت الحياة بهذا الترهل.. زاغت الأبصار عن الغاية التي بعثت لها هذه الأمة، وغفلت القلوب.. واختلفت.. وران عليها ما اكتسبت، وتراخت الأخلاق التي أمسكت بزمام هذه الأمة،

وجعلتها خير أمة أخرجت للناس، أمة جهاد وفتوح، وعزة وتمكين. فتاهت الأمة في أودية الحياة وشعابها.. وعصفت بها رياح الأهواء والشهوات.. وكان هذا سرّاً من أسرار أفول شمسها، وذهاب ريحها، وكسوف نورها..

ولكن لن تزال في هذه الأمة بذرة الحق باقية، وجذوة النور حيّة متقدة.. ما دام القرآن يتلى، وتعيه صدور.. وما دامت السنة تجود بالغيث، وتزهر بالحق.. وتنير السبيل..

٤ ـ ثم كانت رابعة الأثافي، وغطاء هاتيك الدواهي.. شيوع الروح الجاهلية من العصبية القبلية، ما بين قحطانية وعدنانية، إلى النزعة القومية، وجعلها معيار التعامل مع الرجال، وملء الوظائف والأعمال..

وقد طغت هذه الروح على الروح الإسلامية، التي أعلنها الإسلام من أول يوم.. وهي تفرض المساواة بين المسلمين جميعاً، ولا تقيم أي اعتبار للجنس أو اللون، أو اللغة أو القبيلة:

«يا أيها الناس! إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير»[1].

«يا أيها الناس! كلكم لآدم.. وآدم خلق من تراب، لينتهينّ أقوام عن فخرهم بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[2].

---

(١) من سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١١١/ والترمذي، والإمام أحمد انظر المعجم المفهرس ١/ ٣٥٠.

«ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى...»[1]..

إن الروح الإسلامية تقضي بالمساواة بين عباد الله تعالى، وإلغاء الفوارق القبلية والاجتماعية، وجمع كلمة المسلمين، وصهرهم في بوتقة الإسلام وحقائقه ومبادئه، التي شعارها: «الإيمان والعمل الصالح»..

أما الروح الجاهلية، فهي التي تصطنع الاختلاف، وتقيم التمييز والتفريق، لا على أساس العقيدة والمبدأ، والتفاضل في العمل والسلوك، وإنما على أساس اعتبارات أرضية لا قيمة لها، ولا يدَ للإنسان في صنعها.. وهي في حقيقتها لا تقدم ولا تؤخر، ولا ترفع ولا تضع.. وهي روح حاربها الإسلام، وقضى عليها، وعدّها جيفة منتنة من جيف الجاهلية، التي جاء لدفنها، ومحو آثارها من الوجود..

وهاتان الروحان.. ككفتي الميزان.. لا ترجح إحداهما إلا وتطيش الأخرى.. ولا تطيش الأخرى.. إلا لترجح الأولى..

ولقد كانت الخلافة الراشدة، إسلامية خالصة، طاهرة الروح والنزعة، بعيدة كل البعد عن تلك الروح الجاهلية العفنة..

ثم جاءت الدولة الأموية.. فحرصت على عروبة الدولة، إزاء الفرس بصفة خاصة[2]، فكانوا يحرصون على إشعارهم أنهم دون

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٤١١.

(٢) ذكر الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر» مبررات لهذه النزعة في الأمويين، ولكنها تبقى مبررات غير مقبولة لدى الحسّ الإسلامي النقي.. وهي =

العرب، فلا يولونهم مناصب الدولة[1]، ولا يعتمدون عليهم في شيء..

وتبعاً لذلك، كانت هناك نظرة ازدراء للموالي، وحطّ من منزلتهم، مما دفع الكثيرين منهم أن يقبلوا على العلم، والنبوغ فيه، فانتزعوا الصدارة في المجتمع الإسلامي، واحتلوا أرفع مكانة في قلوب الأمة.. على رغم تلك الممارسات الرسمية الخاطئة.. وكان لهم ذكر في التاريخ الإسلامي، وأي ذكر.. حتى كان عصر ساد فيه الموالي بعلمهم وفقههم وإمامتهم أمصار المسلمين كلها[2]..

«والبحث في الموالي يقدم إلينا صورة مشرقة عن أثر الإسلام في إنهاض الشعوب، ومحو الفروق بين الطبقات، إذ رفع من شأنهم، مع أن أعراف سائر الأمم تعتبر أمثالهم طبقة دنيا لا يسمح لها أن تطمع بمساواة ساداتها، فضلاً عن أن تطمح إلى المعالي والسيادة..

«لكن ديننا الإسلامي، جعل معيار سيادة الفرد وكرامته،

= لا تبرىء من وجود نزعة جاهلية، لم تصطبغ بصبغة الإسلام الربانية الخالصة.. وباب التبريرات لا يقف عند حدّ.. ولا يخلو منه عصر...

(١) «واقعنا المعاصر» للأستاذ محمد قطب، ص ١٢٢.

(٢) انظر ما نقله الدكتور نور الدين العتر، في كتابه: «منهج النقد في علوم الحديث»، ص ١٧٦ ــ ١٧٧، من حوار بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وبين الإمام الزهري، رحمه الله تعالى، فقد سأله عمن يسود الأمصار، فكان للموالي قصب السبق.. وكان سؤال عبد الملك يدلّ على تلك النزعة المتأصلة في نفوس الأمويين...

ما يتحلى به من الفضائل والخير كما قرر القرآن: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والتقوى تحقق خير الدنيا والآخرة، وإعمار الحضارة، وهداية القلوب»[1].

ثم كانت ردة فعل من نوع آخر، على تلك النزعة الجاهلية.. التي حرصت على استئثار العرب بالسلطة والسيادة.. كانت ردة الفعل «الشعوبية» الحاقدة التي نشأت وترعرعت في ظلّ الدولة العباسية، وهي دولة عربية في ظاهرها.. ولكنها أرادت إنصاف الأعاجم، وكسبهم إلى صفها، رداً على المسلك الأموي الخاطىء..

فكانت ردّة الفعل خاطئة على ممارسة خارجة عن مبدأ الإسلام خاطئة مثلها.. وكان الحق أن تكون ردة الفعل العودة إلى منهج الإسلام وحقائقه وقيمه..

وكذلك نزعت الدولة العثمانية، إلى تتريك الدولة، والتمييز بين أبنائها ورعاياها على أساس من الجنس لا الدين.. والقوم لا الأمة..

أفما كانت هذه النزعة إذن سبباً في تفريق الأمة المسلمة، وخلخلة صفها وإضعاف روحها؟!.

ثم ألا يحقّ لنا بعد ذلك أن نتساءل: ماذا عسى أن يكون أثر هذه العوامل كلها.. التي نخرت في جسم الأمة، وسرت في كيانها، على كل المستويات، ومختلف الفئات.

---

(١) «منهج النقد في علوم الحديث»، ص ١٧٦.

لقد كان أول أثر لذلك: اختلاف الكلمة، وتفرق الأمة ـ كما كان سبباً من أسباب انتكاس الأمة، وتراجع مدّها الحضاري الكاسح.. مما أدى إلى طمع أعدائها بها، وتكالب قوى الكفر عليها..

* * *

ثم نصل إلى الحديث عن الواقع الحاضر لهذه الأمة.. قبيل تهديم الخلافة الإسلامية، والقضاء عليها، إلى اللحظة الراهنة التي تعيشها الأمة الإسلامية من أدناها إلى أقصاها..

والحديث عن ذلك طويل متشعب، لا نستطيع في هذا المبحث أن نبسط القول فيه، ولكننا نقدّم الملامح العامة، التي سعى فيها الغرب بقواه كلها، ووسائله جميعها، وأعانه من والاه من المتغربين من أبناء الأمة الإسلامية، لتمزيق جسد الأمة، وتشتيت شملها، وتفريق كلمتها، وتفريغها من محتواها الروحي والثقافي المتميز، تحت شعارات شتى، كلها تدّعي الحرص على تقدم الأمة ونهضتها، وانطلاقها لتنافس الأمم الغربية في التفوق العلمي والصناعي..

ونلخّص هذه الملامح في الحقائق التالية:

١ ـ التآمر العالمي الذي تكالب للقضاء على الخلافة الإسلامية، التي تمثل وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، على ما أصابها في الآونة الأخيرة من علل وأمراض، وضعف وقصور..

ولئن كان التآمر على العالم الإسلامي، قديماً قدم الحروب

الصليبية، وغزو التتار والمغول.. للعالم الإسلامي، ولكنه في العصر الحديث اتخذ صورة من التخطيط الدقيق، والمكر الخفي، وتجنيد جميع الوسائل، وتسخير كل القوى.. ليس للغزو العسكري الذي أثبت عكس المطلوب منه، ولكنه للقضاء على مكمن القوة، وأصل الرابطة التي تجمع الأمة الإسلامية، وتوحّد صفها أمام أعدائها.. ألا وهي الروح الإسلامية، التي هي سرّ صمود الأمة، وتماسك بنيانها..

ولقد أدرك السلطان عبد الحميد ذلك كله، فواجه هذه المؤامرات، بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

«أدرك السلطان أنه أمام أخطار داخلية وخارجية، وكان يريد لدولته تجاوز هذه الأخطار، ورأى أن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تمكنه من ذلك، وفي هذا يقول:

«إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء، ونحن أمة حية قوية، ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم»[1].

«وكان يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة، فلا بد إذن من العمل بالإسلام على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة، لكي يمكن الصمود أمام الغرب، كما كان يرى أن جبهة المسلمين في الدولة العثمانية فقط لا تكفي، ولا بد من امتداد تأثير الوحدة

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص١٣، نقلاً عن كتاب حركة الجامعة الإسلامية، ص٢٣.

الإسلامية، إلى كل مسلمي العالم في أفريقيا وآسيا، وغيرها وحتى مع إيران الشيعية التي يبدي أسفه لعدم وجود تفاهم كامل معها»[1].

وهكذا أصبحت سياسة الجامعة الإسلامية محوراً للسياسة العثمانية طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر»[2].

٢ ـ إثارة النعرات القومية والإقليمية، والعرقية، والطائفية، تمهيداً لتمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وللتمكن من تهديم الخلافة الإسلامية..

يقول الشيخ مصطفى صبري، شيخ الدولة العثمانية، رحمه الله تعالى:

«... إن دولة الترك المسلمة، كان آخر سلاح حاربتها به الدول الوارثة لضغائن تلك الحروب ـ الحروب الصليبية ـ نشر الإلحاد القائم على العلوم والمبادىء المادية بين أبنائها المثقفين، ونشر المبادىء القومية بين العناصر المندرجة تحت لوائها..

«وقد وجد أول هذين السلاحين عوناً للأعداء في قلب تركيا، فكان استعماله كفتح الحصن من داخله، كما وجد السلاح الثاني رواجاً عظيماً في أطراف تركيا، وكفى السلاحان، في القضاء على دولة الترك المسلمة المجاهدة»[3].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، المصدر نفسه.

(٢) «حركة الجامعة الإسلامية»: أحمد فهد بركات الشوابكة، ص ٢٣.

(٣) «موقف العقل والعلم والعالم، من رب العالمين، وعباده المرسلين» للشيخ مصطفى صبري: ١/٢٢.

ويتحدث ـ رحمه الله ـ عن دور الغزو الثقافي وتأثيره في مصر بمثل ما أثر في تركيا فيقول: «. . . وجدت الجو الثقافي بمصر أيضاً مسموماً من تيار الغرب، فشق هذا على نفسي أكثر مما شقّ علي موقف تركيا الجديدة من ذلك التيار، كما شق وقوفي على أن إخواني العرب يفضلون تركيا هذه على تركيا القديمة المسلمة، فرأيتهم توغلوا في تقليد الغرب، وسابقوا الترك في الافتتان به».

«والانقلاب الثائر في تركيا حصل عندهم في شكل هادىء، ومن طريق التأثير والتجديد في الأزهر. . .»[1].

٣ ـ سعي اليهود لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وكان من أخطر أغراض ذلك غرس جسم غريب، وزرع جرثومة خبيثة في قلب العالم الإسلامي، تكون في كل لحظة أداة من أدوات الغرب لإثارة الفتن، وتنفيذ المخططات، وتسيير حكومات المنطقة في الاتجاهات التي يريدها.

كما كان من أغراض ذلك تمزيق وحدة الأمة، وتفريق كلمتها، وقطع أجزائها عن بعضها. .

وقد كان اليهود أشدّ المتآمرين على الدولة العثمانية وأخطرهم، وقد سعت الحركة الصهيونية منذ تأسيسها في أواخر القرن التاسع عشر، بقيادة «تيودور هرتزل» إلى جمع يهود العالم، وتوطينهم في فلسطين، كنواة لدولة يهودية في المستقبل، وبذلوا في هذا السبيل جهوداً كثيرة مع المسؤولين العثمانيين كي تيسر لهم

---

(١) «موقف العقل والعالم. . .»: ١/٢٣.

الهجرة والاستيطان، وأغدقوا وعوداً جمة لتقديم المساعدات المالية لحل مشكلات الدولة، وتسخير صحافتهم في خدمة مصالحها وأعراضها[1].. فلم تلق مساعيهم إلا الرفض القاطع، ووقف السلطان عبد الحميد في وجههم سدّاً منيعاً، يقول في مذكراته: «لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين، بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم، وانتخاب ممثلين سياسيين عنهم، وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم، وإنهم لسذّج إذا تصوروا أني سأقبل محاولاتهم هذه.. إن هرتزل يريد أرضاً لإخوانه في دينه، لكن الذكاء ليس كافياً لحلّ كل شيء...»[2].

لقد كان السلطان عبد الحميد عقبة كئوداً في وجه المخطط اليهودي.. فلا عجب أن تتركز جهود اليهود للقضاء على الخلافة، وإزالة السلطان عبد الحميد من وجههم.

يقول الشيخ مصطفى صبري، في بيان دور اليهود في القضاء على الخلافة، ليتمكنوا من إنشاء ما يحلمون به:

«... هذا السلطان ـ يعني عبد الحميد ـ كان سدّاً منيعاً لنزول المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وكان من المصادفات التي لها مغزى، أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلعه، «قره صو» اليهودي نائب سلانيك الذي اختارته لهذه المهمة الهيئة الممتازة، من طرف البرلمان المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ والنواب المختلفي الدين والعنصر... والذي سبق له الحصول قبل إعلان

---

(١) انظر يوميات هرتزل، ص ٥٨ من الطبعة العربية.

(٢) انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٣٥.

الدستور في تركيا على مقابلة السلطان مندوباً من اليهود الصهيونيين، فاتحه فيها رجاءهم المتعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين، مع تقديم هدية موعودة قدرها خمسون مليوناً من الجنيهات الذهب، لخزينة الدولة، وخمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة، على تقدير قبول المسؤول.. فلقي رجاؤه ردّاً عنيفاً من السلطان، مقروناً بإخراجه من حضوره في سخط واحتقار..

«فهل يعرف إخواننا هذه المواقف في الماضي القريب، ويقارنونها بالحالات الحاضرة»[1]؟

وفقد «هرتزل» الأمل في تحقيق مخطط اليهود في فلسطين، ما دام السلطان عبد الحميد على رأس الدولة العثمانية، وقال في السلطان عبد الحميد، وهو يتمزق من غيظه: «سلطان ماكر جداً، خبيث جداً...»[2].

ولكن ما سعى إليه اليهود، وكان مستحيلاً في عهد السلطان عبد الحميد، تمكنوا منه بأقل التكاليف عندما قضوا على الخلافة الإسلامية، ورأوا من خيانة بعض العرب لقضية فلسطين، ما لم يكن لهم في الحسبان.. وأصبحت أحلامهم حقائق.. وحقائقنا أحلاماً..

٤ ــ نشر الأفكار العلمانية، وبثّ فكرة فصل الدين عن الدولة، وتكوين جيل من المتغربين الذي تربوا في أحضان الغرب،

---

(١) «موقف العقل والعلم...»، ص ٢٢ ــ ٢٣، الهامش.

(٢) يوميات «هرتزل»، ص ١٧٣.

ورضعوا من ثقافته ونظرياته، وهيّئوا لتكون بيدهم مقاليد أمور الأمة بعد رحيل الاستعمار العسكري عنها..

وقد كتب شيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبري في بيان خطورة فكرة فصل الدين عن الدولة وأبعادها الخفية في ردة الأمة عن دينها، وسلخها عن عقيدتها، يقول، رحمه الله:

«... حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه، وقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون في البلاد الإسلامية كيد للدين، ومحاولة للخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أدهى وأشدّ من كل كيد...

«فهو ثورة حكومية على دين الشعب، وشق عصا الطاعة لأحكام الإسلام، وارتداد عنه من الحكومة أولاً.. ثم من الأمة ثانياً.. وهو أقصر طريق للكفر..

«وما الفرق بين أن تتولى الأمر في البلاد الإسلامية حكومة مرتدة عن الإسلام وبين أن تحتلها حكومة أجنبية عن الإسلام؟

«بل المرتد أبعد عن الإسلام من غيره وأشدّ، وتأثيره الضارّ في دين الأمة أكثر من حيث أن الحكومة الأجنبية لا تتدخل في شؤون الشعب الدينية، وتترك لهم جماعة فيما بينهم تتولى الفصل في تلك الشؤون..

«ومن حيث أن الأمة لا تزال تعتبر الحكومة المرتدة عن دينها من نفسها، فترتد هي أيضاً معها تدريجاً، إن لم نقل بارتدادها معها دفعة..

«ومن حيث أن موقفها الاضطراري تجاه حكومة تأخذ سلطتها وقوتها من نفس الأمة، ليس كموقفها الاضطراري تجاه حكومة أجنبية لها قوة أجنبية مثلها..

«ومن هذه النقاط الدقيقة المهمة كان ضرر الحكومة الكمالية بأمة الترك المسلمة أشدّ من أي حكومة أجنبية مفروضة على بلادها...»[1].

ويتحدث، رحمه الله، عن خطر مسألة «فصل الدين عن الدولة» على بعث هذه الأمة الحضاري، وتكوينها الثقافي، واجتماع كلمتها، فيقول:

«... ما رأيته ورآه معي كل غيور على أهل ملته، بعيون دامعة، من تشتت شمل المسلمين، وهبوطهم إلى حضيض الذل والمسكنة، منذ طروء الضعف على اعتصامهم بدينهم القوي القويم...».

«فالمسلمون في حاجة إلى تدارك أمرهم بالرجوع إلى حضانة الإسلام، فيتربوا فيها، ويبعثوا من جديد إلى حياة الدنيا والآخرة، ولا ينفعهم البحث عن أسباب البعث في حضانات أجنبية، فينشأوا أمة ممسوخة، لا شرقية ولا غربية، ولا مسلمة ولا كتابية.

«ولا يكون منشأ هذه الفوضى الدينية والاجتماعية والسياسية التي لا يقيدها نظام غير نظام التطفل للأمم، إلا الوهن في العقيدة. فالأخلاق من غير دين عبث كما قال الفيلسوف «فيخته»، والأمة من

(١) «موقف العقل والعلم...»: ٤/٢٨١ ـ ٢٨٥، باختصار يسير.

غير أخلاق أضل من الأنعام، وأبعد من أن يشدّ بعضها بعضاً، والدين لا بد أن يجيء من قبل الله، ليتحلى المتدين قبل كل شيء بمخافة الله، التي هي رأس الحكمة، ومعدن الشفقة على خلق الله»[1].

«إننا نرى هذا الفصل مساوياً لفصل الدين عن الأمة، بل أشدّ ضرراً، وأكثر مفعولاً، لأن الحكومة تستطيع التأثير في الأمة، ولا تستطيع الأمة التأثير في الحكومة، ما دامت خاضعة لحكمها، فليس في مقدور الأمة التأثير في حكومتها غير تغييرها. فإذا لم تغيرها، أو عجزت عن تغييرها فلا شك في تأثير الحكومة فيها، وتمشيتها على هواها، وتنشئة أبنائها على مبادئها، دون تأثير من الأمة في الحكومة..

«فليس معنى تجويز فصل الدين عن السياسة إلا تجويز تجرد الحكومة عن الدين، وهل يجوز في حق الحكومة هذا التجرد الذي لا يجوز في حق الأمة، إلا أن الراغبين في تجريد الحكومة من الدين يسمونه: «فصل الدين عن السياسة، تخفيفاً لخطره وسوء تأثيره في سمع الأمة المتدينة، فهم يتوسلون إلى القضاء على دين الحكومة بأن يعبروا عن هذا القضاء بالفصل بين الدين والسياسة، ثم يتوسلون بالقضاء على دين الحكومة إلى القضاء على دين الأمة.

«وإذا لم يكن معنى فصل الدين عن السياسة تجريد الحكومة من الدين لتعمل بعقلها القصير، محررة من قيود الدين وأحكامه، فماذا يكون معنى هذا الفصل؟ وقد كانت الحكومات الإسلامية منذ

(١) «موقف العقل والعلم...»: ٤/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

عصر الصحابة، رضي الله عنهم، إلى عهد قريب مما نحن فيه اليوم من السنوات النحسات، تحكم على الأمة، ويحكم عليها الإسلام من فوقها، فإن فعلت ما يخالف حكماً من أحكام الدين، فإنما كان ذلك يعد ذنباً على الحكومة الفاعلة، كما يقترف أحد من المسلمين إثماً متبعاً هواه..

«أما مجاهرة الخروج عن رقابة الإسلام، ومحاولة فصل الدين، وعزله عن السياسة أي عزله عن حكمه على الحكومة، ووضع هذه المسألة موضع البحث، في شكل مشروع جديد، ومذهب اجتماعي جديد، ومحاولة تقليد الحكومات الأجنبية عن الإسلام في ذلك.. فلم تكن تطوف ببال أي حكومة من حكومات المسلمين، مهما كانت فاسقة مستهترة في أفعالها، لأنه إعلان حرب من الحكومة على الإسلام كما هو المعتاد في الحروب، تعلنها الحكومة، ثم يعتبر ذلك إعلاناً من الأمة أيضاً»[1].

«إن ترويج فصل الدين عن الدولة، سواء كان هذا الترويج من رجال الحكومة، أو الكتاب المفكرين، لا يتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله، وأن أحكامه المذكورة في الكتاب والسنة، أحكام الله المبلغة بواسطة رسوله، وكل من أشار بمبدأ الفصل فهو إما مستبطن للإلحاد، ويهيّىء الأذهان لقبوله.. وإما بليد جاهل بمعنى فصل الدين عن الدولة ومغزاه»[2].

---

(١) «موقف العقل والعلم...»: ٤/٢٩١ ـ ٢٩٢، باختصار وتصرف يسير.

(٢) «موقف العقل والعلم...»: ٤/٢٩٤، باختصار يسير.

٥ ـ دور المنظمات الماسونية والعلمانية، والأحزاب على اختلاف اتجاهاتها في احتواء الفئة النشطة من أبناء المسلمين، ونشر الفكر الغربي والنظريات التي تتعارض مع مبادىء الإسلام وقيمه.. ودورها كذلك في تمزيق جسم الأمة الإسلامية، وإشاعة العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة، واستغلال بعض الأوضاع الشاذّة، لترويج أفكارها وضلالاتها..

وكان من أخطر ما بثّته في صفوف المسلمين: تمييع نظرة أبناء الأمة إلى الأمم الكافرة، وإلى ما يأتي من عندها من نظريات وفلسفات، ومناهج ونظم.. وقد ساعدها في ذلك ما أحرزه الغرب من تقدم علمي، وتفوق صناعي ومادي، مع ما نكب به الشرق من تخلف وانحطاط وخلو ساحته من القيادة الحقة، التي تأخذ بيد أبناء الأمة إلى الاتجاه الحق، والمسار الصحيح..

كما ساعد هذه المنظمات والأحزاب، قيام الحكومات البعيدة عن الدين التي أتاحت لها المناخ الملائم لنشر مبادئها وأفكارها.. وتسريع عجلة التدهور في حالة الأمة واتساع زاوية الانحراف..

وشنت تلك المنظمات والأحزاب، حملة ثقافية عنيفة للتشكيك في مبادىء الإسلام وتشريعاته وقيمه، أوحى بها زبانية الغزو الفكري من هناك من المستشرقين والمنصّرين..

واتخذت تلك الحملة عناوين شتى.. من التجديد في الدين إلى الانسلاخ عنه، والثورة عليه.. وغلّفت غلاف البحث العلمي، وأعلنت تحت ستار الحرية الفكرية، وتستّرت بالعلوم الإنسانية، والاتجاهات الأدبية، واقتباس الآداب الشرقية والغربية.. ومنها

ما كشف عن سوأته، وأفصح عن خبيئته، فأعلن التشكيك في الدين، وأنكر بعض مبادئه وتشريعاته، وعارض برأيه العليل، وفكره الكليل بعض أحكامه، ومنهم من زعم أن نبذ الدين سبيل التقدم العلمي، ووضع العلم والدين في كفتي الميزان.. وخيّر الناس بين هذا أو ذاك.. وحمّل الدين سيئات تخلف المسلمين، وانحطاط حياتهم، وبعدهم عن أسباب التقدم والرقي..

وركب هذه الموجة على أثر هؤلاء وأولئك بعض حملة الأقلام والكتّاب، والمفكرين والأدباء، الذين لا حظّ لهم من فهم الإسلام ولا علم، وهم أتباع كل ناعق، همهم أن يشايعوا كل هوى، وأن يواكبوا كل جديد.. ولو كان بدعة ضلال، أو حثالة أفكار..

٦ ــ ثم كان من أخطر ما وُجّه إلى هذه الأمة من الغزو الأخلاقي: الدعوة إلى تحرير المرأة، وتبرجها وسفورها، واختلاطها بالرجال، وإخراجها عن قوامة الرجل وطاعته، وترك حبلها على غاربها، تفعل ما تشاء، وتسلك كما تريد، وتتأسى بالمرأة الغربية، التي خرجت عن كل القيم، حتى وصلت إلى أسفل السافلين.

واتخذ الذين في قلوبهم مرض من التخلف عن الإسلام، والأعراف التي سادت في المجتمعات الإسلامية، ولا يقرها الإسلام، مما يتصل بواقع المرأة، ونظرة المجتمع إليها، اتخذوا من ذلك كله تكأة لهم في رفع عقيرتهم بهذه الدعوة الهدّامة لإفساد المرأة، وإفساد الأسرة، وإفساد المجتمع وإفساد الحياة كلها.. وساروا نحو غايتهم المرسومة بخطى حثيثة، تؤزّهم وسائل الإعلام على تنوعها وتعددها، وتسخر لأغراضهم أبواقها النافخة، وأساليبها

الآسرة، وصورها الماجنة المستهترة، وجُنّد لخدمتهم الفنّ والأدب.. وأذكى من نار فتنتهم الانبهار بالغرب وعاداته وأخلاقه.. وما ينقله الفارغون المفتونون، والسفلة الذين صاروا علية القوم، من الانهيار الأخلاقي الذي وصل إليه..

ولا نستطيع أن نقف في هذا المبحث عند موضوع الدعوة إلى تحرير المرأة بأكثر من ذلك، وإنما الذي يهمنا هنا أن نعلم أن تلك الدعوة الخبيثة كانت لتمزيق المجتمع المسلم، وتمكين الغزو الأخلاقي، والغزو الثقافي من بلاد المسلمين وعقولهم، وللقضاء على القيم الإسلامية التي هي سرّ تماسك الأمة، ولتدمير روح الجهاد في سبيل الله فيها[1]..

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء، وإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[2].

وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[3].

---

(١) وأحيل القارىء الكريم إلى ما كتبه الأستاذ محمد قطب ــ جزاه الله خيراً ــ في كتابه: «مذاهب فكرية معاصرة» في فصل: «دور اليهود في إفساد أوروبا»، وما كتبه أيضاً في كتابه: «واقعنا المعاصر»، ص ٢٤٩ ــ ٢٩٥، من الحديث عن المخطط الذي نفّذ في مصر، لإخراج المرأة عن دينها وقيمها الإسلامية، ووسائل ذلك وآثاره.. والعالم الإسلامي تتشابه ظروفه، وما ينفّذ فيه من مخططات...

(٢) متفق عليه، من حديث أسامة بن زيد، رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه، البخاري: ٣/٢٥٨؛ ومسلم: ١٠٥٢ و١٢٣.

٧ ــ ثم كان الاستعمار العسكري، لأكثر بلاد المسلمين، الذي سبقه ومهّد له الاستعمار النفسي.. الذي خطط وسعى لتمكنه من بلاد الإسلام بتنفيذ الملامح السابقة كلها، أو بالتمهيد لبعضها قبل وجوده، ثم بترسيخ جذورها بعد وجوده، وتمكنه من البلاد والعباد.

وقامت حركات التحرر من الاستعمار، في جميع بلاد الإسلام، وبذلت الأمة كل إمكاناتها للتخلص من وجوده العسكري على أرضها، وكان الإسلام هو المحرّك الأول للجهاد ضد الاستعمار، والمذكي لروح مقاومته، وبذل الروح في سبيل الدفاع عن أرض الإسلام وتحريرها من دنسه..

وكان الاستعمار يعلم أن وجوده لم يكن دائماً، ولا يمكن أن يكون.. فسارع بكل قواه قبل خروجه، لينهب ما يستطيع من خيرات المسلمين وثرواتهم، وسعى لتغريب الطبقة المثقفة. التي ستخلفه.. فصنع رجالاتها على عينه، في مدارس التبشير التي افتتحها.. ورباهم في بلاده تحت سمعه وبصره.. وبدل بدمائهم دماءً غربية مستغربة.. فاستعمر عقولهم وضمائرهم ومسخ شخصياتهم، وتكوينهم الحضاري وتصورهم.. وجعلهم ذيلاً يأتمرون بأمره.. وينتهون بنهيه من بعيد!. ويكملون تنفيذ ما بدأه من مخططات، وأرسلهم في بلاد المسلمين ينشرون رسالة التغريب.. بطريقة عجز هو عنها مباشرة لأنه كان جسماً غريباً في كيان الأمة..

فخرج الاستعمار من بلاد المسلمين، ولكن غزوه الفكري

والأخلاقي، لا يزال يفعل فعله، ويستشري شره وفساده في طول البلاد وعرضها.. ولا يحسّ به إلا الأقل من القليل..

٨ ــ وقبل أن يخرج الاستعمار، كان في الأمة يقظة.. يقظة نحو دينها.. ووعي للأسباب الحقيقية التي قضت بتخلفها، وسيطرة الاستعمار على بلادها..

بل إن هذه اليقظة تزامنت ضبطاً مع تهديم الخلافة، والمؤامرات المكثفة التي كانت تحاك للأمة الإسلامية، وتخطط بما يشبه العلن.. للسيطرة عليها من شرقها إلى غربها..

لقد حدثت يقظة إسلامية في كل أرض من بلاد الإسلام، وظهرت فئة تجدّد لهذه الأمة أمر دينها، وتبعث فيها روح الإسلام النابض من جديد، وتعلن أن لا حلّ لمشكلات الأمة، ولا نهضة لها من عثارها، ولا خلاص لها من تخلفها وقيودها إلا بالعودة إلى الإسلام بمفهومه الشامل الصحيح، وتحكيمه في شتى شؤون الحياة..

والسؤال الذي نختم به هذا المبحث:

كيف واجه دعاة الإسلام في العالم الإسلامي هذه الأعباء الضخمة، والمسؤوليات الجسيمة، والعلل المتفاقمة؟! التي تنخر في جسم العالم الإسلامي، وتفتك في أوصاله، وتهدد بنيانه...

لقد فتحوا أعينهم على المؤامرات تحاك لهم من كل جانب، والأخطار تحدق بالإسلام والمسلمين على كل المستويات، فالخلافة مهدّمة، والبلاد مستعمرة، والغزو الثقافي والأخلاقي تكتسح جيوشه بلاد الإسلام، والتغريب ينتقص أبناء المسلمين،

وفلذات أكبادهم واحداً بعد الآخر.. ويعينه على ذلك التقدم العلمي الذي ملك الغرب أسبابه ووسائله، ووقفت الأمة الإسلامية ـ وللأسف ـ صفر اليدين منهما..

والدين معزول عن الحياة.. فرضت عليه فئات من الناس العزلة، وفرضها عليه بعض حملته، بسلوكهم الخاطىء، وبسوء تمثيلهم للإسلام.. وعزلتهم عن ميادين الحياة الفاعلة المؤثرة..

والطبقة المثقفة بالعلوم العصرية تنشأ نشأة علمانية مبتوتة الصلة بالدين وتفهم الإسلام فهماً مشوهاً.. تهيمن على عقولها وضمائرها المنظمات الماسونية، والصلات المشبوهة بدوائر شرقية أو غربية.. وتهيّأ لتكون الرائدة للمجتمع، والطليعة القائدة لأبنائه، والعقول التي تفرض مناهج تطويره وتنميته.. وفق ما يمليه السادة المربون من هناك...

وأصوات كثيرة مشبوهة.. ترتفع هنا وهناك.. بدعوات شتى.. ونعرات متعددة.. تعلو على دعوة الحق وصوته ونبرته.. وتحتلّ مساحة من المجتمع كبيرة.. وترمي بثقلها في كل مجال.. وتبلغ بوسائلها وأساليبها إلى ما لا تستطيع دعوة الحق أن تبلغ ولا يراد لها أن تبلغ..

فهل استطاع دعاة الإسلام أن يوحدوا جهودهم، ويجمعوا كلمتهم، وينظموا صفوفهم، لتقف صفاً واحداً أمام عدوهم المشترك، الذي يخطط لهم جميعاً، ويتربّص بهم جميعاً؟

لقد استطاع عدوهم المشترك ـ في بعض الأحيان ـ أن ينفذ مخططاته عن طريق بعضهم، وأن يخدعهم عن أهدافهم الكبرى

وغاياتهم، بل استطاع أن يميل إليه بعض الرجال أو الفئات، ويستعين بها على الفئات الأخرى. . ويؤجج نار العداوة والخلاف.

وهل استطاع دعاة الإسلام منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن يحققوا الأهداف التي انتدبوا أنفسهم لتحقيقها؟. والتي من أجلّها وأعلاها: العمل من خلال أصول عامة، تجمع كلمتهم، وتوحد صفوفهم، وتؤلّف بين قلوبهم، وتجعلهم يتخذون مواقف مشتركة في المعارك الاجتماعية الحاسمة، التي تهدد دين الأمة، ومستقبلها الثقافي والحضاري، ويتألب فيها أعداء الإسلام جميعاً على اختلاف مناهجهم وفكرهم، وولائهم وانتمائهم. . يتألبون على الاتجاه الإسلامي لإقصائه من الساحات الفاعلة في المجتمع، وقد تحقق لهم ذلك، لأسباب يعود أكثرها لسلبيات في الحركة الإسلامية عموماً، أكثر مما يعود إلى تخطيط أعداء الإسلام وكيدهم للدعوة الإسلامية. .

وإن كان كثير من العاملين للإسلام قد دأبوا على تبرير التخلف عن تحقيق أهدافهم، بتحميل أعداء الإسلام النصب الأكبر من مسؤولية إحباطهم، والعجز عن بلوغ أهدافهم. .

والحق أن أعداء الإسلام كان دورهم ــ في أكثر الأحيان إن لم نقل كلها ــ استغلال الواقع السيّىء، الذي هو من صنع بعضنا. . أكثر من أن يصنعوا هذا الواقع أو يخططوا لإيجاد واقع معين يحققون من ورائه أهدافهم. .

إن الاتجاهات المعادية للإسلام تقوم كلها على مبدأ فهم الواقع الإسلامي وتركيبته، وما فيه من علل وأمراض، ومنافذ

وثغرات، وتوظيف ذلك للوصول إلى أهدافهم، وتحقيق غاياتهم.. ولقد يبلغون قمة النجاح، والغاية الكبرى لمطامحهم أن تكون أداة التنفيذ يد من أيدينا.. أرادت أم لم ترد.. شعرنا أم لم نشعر..

إنك أنّى نظرت من شرق العالم الإسلامي إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه.. ترى هذه الحقيقة واضحة صارخة..

وترى أن العاملين للإسلام لم يستطعوا أن يوجدوا صيغة للتعامل فيما بينهم لتحقيق أهداف الإسلام الكبرى في مجتمعهم، وللوقوف صفّاً واحداً أمام عدوهم المشترك.. بل إنهم ــ في بعض الأحيان ــ لا يرون ما يمنعهم من التعامل مع أحزاب وهيئات علمانية في مجالات متعددة، ويتفقون معها، ويدلون بأصواتهم لتأييدها، ويقفون من هيئات إسلامية، أو جماعات إسلامية موقف العداوة والمقاطعة، وكيل الاتهامات والشتائم، وتصديق الأقاويل والأكاذيب.. لقد وصلت الحال ببعض العاملين للإسلام أن ينظر إلى عاملين للإسلام مثله أسوأ من نظرته إلى الشيوعيين الملاحدة.. ولست أذيع سرّاً في ذلك، أو أهتك ستراً، أو أبالغ في القول.. ومن يسمع الأقاويل يهوله هذا الواقع ويحار في تفسير أسبابه.. ولكنها بعد النظر والتمحيص لا تخرج عن أسباب أربعة تلتقي عندها الأسباب كلها، وهي التي تحول بين العاملين للإسلام، وبين اجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، والتنسيق بين جهودهم لتحقيق أهداف الإسلام الكبرى في المجتمعات الإسلامية.

ونعرض هذه الأسباب عرضاً هنا، إذ لا مجال لتفصيل القول فيها في هذا البحث، ولعل الفرصة تتيح في مناسبة أخرى أن نتناولها بالتمحيص والدراسة:

١ ــ فقد القيادة الإسلامية المتأهلة الموهوبة، التي تجتمع عليها القلوب، وتسلّم لها الأمة.. وفقد البديل لها في حياة الأمة..

٢ ــ شيوع الأمراض النفسية من العجب والغرور، واتباع الهوى.. وسوء الظنّ، واتهام الآخرين.. وقيام هذه الأمراض حاجزاً بين لقاء العاملين، وتعارفهم وتعاونهم.

٣ ــ سوء تطبيق الاجتهاد، أو الاجتهاد فيُ غير محله، من غير أهله.. وانحرافه عن خطّه الأصيل، وما أثاره من فوضى دينية واجتماعية ودعوية..

٤ ــ غياب الروح الجماعية المتعاونة، في العمل والدعوة، والاكتفاء بالعمل الفردي، أو بذل الجهود في مجال محدود، لا تصل بينه وبين العاملين في الحقل الإسلامي أية جسور، ولا تمتدّ آثاره، ولا تتصل نتائجه وثماره..

وختاماً: فإن علل العمل الإسلامي كلها تتجمع عند تفرق العاملين للإسلام واختلاف كلمتهم، وكفى بذلك إثباتاً لوجوب وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم.. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل...

المبحث الثاني

إقامة أصول للاسلام ومبادئه تحقق وحدة الأمة وتجمع كلمتها

إن من فضل الله ورحمته بهذه الأمة، أن عدّد لها سبحانه الأسباب التي توجب وحدتها، وتجمع كلمتها، إن أقامتها كما أمرها الله، وتمسّكت بها مقتفية أثر الرسول ﷺ وسنته، متّبعة هديه وسيرته..

كما حذّر الله سبحانه هذه الأمة، أن تختلف في أصول دينها، كما اختلفت الأمم السابقة، وأن تقصّر أو تغالي في إقامة شرعته، وتطبيق مبادئه، فتختلف كلمتها، وتتمزق وحدتها.. وتحل بها نقمة الله وعذابه كما حلّ بغيرها من الأمم، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

فقال سبحانه: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم،

لفي شكّ منه مريب، فلذلك فادعُ، واستقم كما أمرت، **ولا تتبع أهواءهم، وقل**: آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا، وإليه المصير﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين إليه، واتقوه، وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرّقوا دينهم، وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون﴾[2].

فقد تحدثت الآيات في سورة الشورى عن جملة حقائق نجملها فيما يلي:

أولها: أن ما أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ من أصول الدين من الإيمان بالله وحده، وعبادته وطاعته، والإيمان بجميع أنبيائه ورسله، والإيمان بالاخرة وحقائقها.. وما إلى ذلك، ليس بدعاً عن دعوة الأنبياء، فهذه رسالة جميع الرسل ودعوتهم: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم، وموسى وعيسىٰ...﴾.

الثاني: أن التكاليف العملية التي جاءت في شرائع الأنبياء،

---

(١) من سورة الشورى، الآيات: ١٣ ــ ١٥.

(٢) من سورة الروم، الآيات: ٢٩ ــ ٣٢.

واختلف التكليف بها من شريعة إلى شريعة، كما قال سبحانه: ﴿لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾[1]، هذه التكاليف، فيها أصول وفروع، وأصولها متفق عليها أيضاً في جميع الشرائع، على الجملة، ومختلف في تفاصيلها بين شريعة وأخرى.. وقد جمعت كمالات الشرائع، وزادت عليها في الأصول والفروع الشريعة الخاتمة شريعة نبينا محمد ﷺ سيد الرسل وخاتمهم.

قال الإمام القرطبي في تفسيره، نقلاً عن القاضي أبي بكر ابن العربي:

«... فكان المعنى أوصيناك يا محمد، ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة؛ وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله، بصالح الأعمال، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى، والأذيّة للخلق كيفما تصرفت، واقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله مشروع ديناً وحداً، وملة متحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم...»[2].

وقال مجاهد: لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله تعالى، وطاعته سبحانه، وذلك إقامة الدين»[3].

---

(١) من سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/١٦، باختصار يسير.

(٣) «روح المعاني» للآلوسي: ٢١/٩.

والثالث: أن الله تعالى عهد إلى الجميع، وأوصاهم، الرسلَ وأتباعهم أن يقيموا الدين كما أمر، ولا يتفرقوا فيه.. أي يجعلوه قائماً، يريد دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه ولا اضطراب، ولا تحريف ولا تبديل، ولا ابتداع فيه ولا انتقاص منه، ولا غلوّ ولا تقصير.. فمن الخلق من وفّى بذلك، ومنهم من نكث: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله، فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[1].

ولا يخفى أن أكثر الأمم السابقة، حرفت دينها، وتلاعبت بكتبها، وبدّلت شرائع ربها، وأحلّت ما حرّم الله، وحرّمت ما أحلّ الله، وشرعت من الدين ما لم يأذن به الله، فكان هذا من أخطر أسباب اختلافها، وتفرقها إلى شيع وأحزاب..

وهذا ما ذكره الله سبحانه في عدة مواطن من كتابه العزيز؛ وبيّن أسبابه؛ ففي هذا الموطن قال سبحانه: ﴿وما تفرقوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[2].

---

(١) من سورة الفتح، الآية: ١٠؛ وانظر تفسير الإمام القرطبي: ١١/١٦، باختصار يسير.

(٢) من سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

وقال سبحانه: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريعُ الحساب﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوات ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾[2].

وقال، عز من قائل: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوات ويؤتوا الزكوات وذلك دين القيِّمة﴾[3].

يقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، رحمه الله تعالى:

«فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم، الذي بين لهم ما يتقون، فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم، حتى يبين لهم ما يتقون.

«وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغياً، والبغي مجاوزة الحدّ، كما قال ابن عمر، رضي الله عنهما: البغي هو الكبر والحسد، وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم، ولا قصد به البغي،

---

(١) من سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) من سورة الروم، الآيات: ٣٠ ــ ٣٢.

(٣) من سورة البينة، الآيتان: ٤، ٥.

كتنازع العلماء السائغ، والبغي إما تضييع للحق، وإما تعد للحد، فهو إما ترك واجب، وإما فعل محرم، فعلم أن موجب التفرق هو ذلك..

«وهذا كما قال عن أهل الكتاب: ﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾.

«فأخبر أن نسيانهم حظّاً مما ذكروا به ـ وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به ـ كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعه...

ثم قال، رحمه الله:

«فظهر أن سبب الاجتماع والالفة، جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطناً وظاهراً..

وسبب الفرقة: ترك حظّ مما أمر العبد به، والبغي بينهم..

«ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه..

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم..

«وهذا أحد الأدلة، على أن الإجماع حجة قاطعة، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة الله ورحمته، بفعل لم يأمر الله به، من اعتقاد أو قول أو عمل، فلو كان

القول أو العمل، الذي اجتمعوا عليه، لم يأمر الله به، لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سبباً لرحمته»[1].

وقال الإمام الرازي، رحمه الله، مبيناً فوائد إقامة الدين، البعد عن التفرق فيه، وملخصاً ذلك:

«قوله تعالى: ﴿أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه﴾ مشعر بأن حصول الموافقة، أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه:

الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد، قوي التأثير.

الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت، وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود.

الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم، لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم﴾[2].

والأمر **الرابع** الذي نستفيده من هذه الآيات:

أن روح دعوة الرسول ﷺ، وجوهر رسالته، جمع الإنسانية

---

(١) انظر الفتاوى: ١/١٤ ـ ١٧ اقتصاراً على المقصود.

(٢) «التفسير الكبير للفخر الرازي»: ٢٧/١٥٧.

على دعوة الحق، ونبذ الفرقة والاختلاف، وهي الكلمة السواء التي أمر النبي ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إليها: ﴿قل: يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا، فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون. . .﴾[1].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فلذلك فادع، واستقم كما أمرت﴾، يعني: فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، واستقم عليها، وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة. . .»[2].

فإذا كانت دعوة الإسلام تهدف إلى جمع الناس ـ كل الناس ـ إلى كلمة سواء، وتدعو إلى نبذ الفرقة والخلاف. . فإنه لحري بالداعية المسلم، أن يكون ذلك شعاره مع المسلمين أنفسهم، من باب أولى، يجمع ولا يفرّق، ويؤلف ولا ينفّر، ويحرص على وحدة الصف، ولمّ الشّعث، واجتماع الكلمة، وبين يديه من الحقائق التي تعينه، والمؤيدات التي تنصره، ما يكفل له النجاح في مهمته، والانتصار في تبليغ رسالته، وحمل دعوته، إن أوتي الحكمة، ومنح العون والتوفيق. .

والخامس: أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالاستقامة على ما شرع

---

(١) من سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) «التفسير الكبير للفخر الرازي»: ١٥٨/٢٧.

له من الدين، وألا يتبع أهواء الذين لا يعلمون. . من الذين بدلوا دينهم من أهل الكتاب، أو المشركين. . وهذا الأمر مقابل لما نهى عنه سبحانه، من التفرق والاختلاف في الدين، فعلم من ذلك؛ أن الاستقامة، والبعد عن اتباع الأهواء، هما العصمة من التفرق والاختلاف، وقد ربط بين ذلك أيضاً في آيات أخرى ـ سبحانه، فقال تعالى:

﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾[1].

وفي بيان ذلك يقول الأستاذ سيد قطب، رحمه الله تعالى:

«وهكذا يتمحض الأمر، فإما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة، والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله، إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوىً يهفو إليه الذين لا يعلمون. .

«والله سبحانه يحذّر رسوله ﷺ أن يتّبع أهواء الذين لا يعلمون، فهم لا يغنون عنه من الله شيئاً، وهم يتولون بعضهم

---

(١) من سورة الجاثية، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

بعضاً، وهم لا يملكون أن يضروه شيئاً حين يتولى بعضهم بعضاً، لأن الله هو مولاه: ﴿والله ولي المتقين﴾.

«وإن هذه الآية مع التي قبلها، لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده، وتغني في هذا عن كل قول، وعن كل تعليق أو تفصيل: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين﴾.

«إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل، وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها.. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء.. فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة، وهم إلب عليه، فبعضهم ولي لبعض، وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه، ولكنهم أضعف من أن يؤذوه، ﴿والله ولي المتقين﴾ وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً، من صاحب شريعة يتولاه الله؟!.. ولي المتقين»[1].

ومن هنا: كانت المفاهيم الإسلامية من أول يوم واضحة كل الوضوح، راسخة ناصعة، فإما اتباع للشريعة، واستقامة عليها..

---

(١) «في ظلال القرآن»: ٥/٣٢٢٩.

وإما ابتداع فيها، وخروج عنها.. واتخاذ الأهواء آلهة من دون الله سبحانه..

وإنما خالفت الفرق والطوائف التي خالفت أهل السنة والجماعة، وهم الذين حافظوا على الخطّ الأصيل الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، وشذّت تلك الفرق عنهم، على حسب اتّباعهم لأهوائهم، وعلى قدر ابتداعهم في دين الله ما لم يأذن به الله، وقولهم على الله بغير علم.. ففرقوا جماعة المسلمين، وصدّعوا وحدتهم، وشذّوا عن السواد الأعظم من الأمة، فسُمّوا «**أهل الأهواء والبدع**».

وقد حذر النبي ﷺ من اتباع الهوى، والإعجاب بالرأي، فهما أصل الابتداع في الدين، والوقوع في فتنتي الشبهات والشهوات، فقد جاء في الحديث:

«... فإذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوىً متّبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع عنك العوامّ...»[1].

وبعد؛ فهذه جولة في كتاب الله تعالى، تبينا فيها ـ على وجه الإجمال ـ أسباب اختلاف الأمم السابقة، وتفرّق كلمتها، وشتات أمرها، وأن لا عصمة لهذه الأمة من الاختلاف والتفرق إلا بإقامة الدين، بلا غلوّ ولا تقصير، ولا تعطيل ولا تحريف، ولا تغيير

---

(١) الحديث رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، وانظره بتمامه في «مختصر سنن أبي داود»: ٦/١٨٩.

ولا تبديل.. وأن الانحراف عن ذلك إنما يعني اتباع الأهواء.. أهواء البشر التائهة الضالة، وعلى قدر اتباعها، والسير وراءها.. يكون الانحراف والضلال.. الذي يبدأ صغيراً لا يؤبه له، ثم يصبح أخدوداً، يشقّ في الأرض، ويضاهىء شرع الله ودينه..

يبدأ في صورة فردية محدودة، يمكن علاجها وتقويمها.. ثم يصبح ظاهرة اجتماعية.. تحتاج إلى جهود أمة داعية إلى الخير، متعاونة على البر والتقوى، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.. ثم يتحوّل ـ إن لم يقوّم ـ بعد ذلك إلى ظاهرة مجتمعية، مستعصية على التقويم والتعديل.. بل لا بدّ فيها من التغيير الجذري، والإصلاح الشامل، الذي يحتاج إلى عقود من السنين.. وأجيال متعددة..

ولا بد لنا بعد هذه الجولة، من التفصيل بالحديث عن حقائق الإسلام ومبادئه، وعقيدته وتشريعاته التي تستلزم وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، استلزام النتيجة لمقدمتها، والمسبّب لسببه، والمعلول لعلته؛ وتهدف إلى ذلك وتحقّقه:

إن نظام الإسلام بجملته وتفاصيله، وأصوله وفروعه، وأصوله الكبرى وأحكامه العملية، بعقيدته وعباداته، وتشريعاته وأخلاقه.. كل ذلك يصبّ في بوتقة جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، ويهدف إلى تكوين أمة واحدة، قوية الأركان كاملة البنيان..

كل ذلك يحقق للأمة بناء الذات المتميزة المستقلة، ويحافظ على بنيانها فلا يتصدع، وعلى كيانها فلا ينتقص من أي جانب من جوانبه، ولا يخدش.. ويحافظ على مجتمعاتها، فلا تتيه وراء

سراب الفلسفات الأرضية، والمناهج البشرية، وتضل عن صراط ربها المستقيم..

ويحافظ على أفراد الأمة، فلا يتفرقون إلى شيع وأحزاب، وفرق ومِزَق.. وذرات تائهة تتبع كل ناعق، وتسير خلف كل داعية من دعاة الضلال وتعصف بهم ريح الشهوات والشبهات.. فتختلّ صفوفهم، وتتناكر قلوبهم، وتتداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، لأنهم يعيشون حالة من الغثائية التائهة[1].. لا انتماء فيها بحق إلى الدين الحق، بحقيقته الكاملة الشاملة، وإنما انتماء صوري، لا نجاة فيه ولا غناء، وذبذبة ليست بين الحق والباطل.. وإنما هي بين الضلالات والأباطيل... ثم سير في ركاب أهواء البشر، لا يتوقف حتى يجعل صاحبه في سقر..

ولا بدّ أن نقف وقفة عند مبادىء الإسلام وشرائعه، نستجلي فيها، كيف كان يهدف الإسلام ـ من جملة ما يهدف ـ أن يجعلها

---

(١) جاء في الحديث عن ثوبان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل **أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل**، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهْن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا، وكراهية الموت»، رواه أبو داود، والإمام أحمد في مسنده. انظر مختصر سنن أبي داود: ١٦٥/٦؛ والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث: ٤٠٢/٥.

ويشير هذا الحديث الشريف إلى بعض آثار تفرّق الأمة، واختلاف كلمتها، وذهاب ريحها.. ومظاهر ذلك في موقف أعدائها منها، وما تصاب به من انهيار داخلي، وهزيمة نفسية، وتثاقل إلى الأرض، ورضا بالذل والهوان...

كلها تعمل لتأليف قلوب المؤمنين، وتوحيد صفوفهم، وتوثيق عرا الأمة الإسلامية على منهج الإسلام، وصراط الله المستقيم..

وأول ما يوحّد الأمة، ويؤلف بين قلوب أبنائها، توحيد الله تعالى، الخالص النقي من كل شوائب الشرك أو الجحود.. يقول الحق تعالى:

﴿قل: يا أهل الكتاب! تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1].

إنها دعوة التوحيد لله وحده.. التي توحد وتجمع.. وإن الشرك تتنوع مظاهره وتتعدد طواغيته ومعبوداته من دون الله.. وما سوى التوحيد الحق الخالص، سيكون الناس بعضهم أرباب بعض.. وسيكونون شيعاً وأحزاباً.. وسادة وعبيداً..

ففي الإسلام «التحرر المطلق من العبودية للعبيد، والنظام الإسلامي هو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر...».

«إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، يقع هذا في أرقى الديموقراطيات، كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء...»[2].

وينبثق عن وحدة العقيدة من الإيمان بالله تعالى وتوحيده،

---

(١) من سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) «في ظلال القرآن»: ١/٤٠٧.

والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من مواقف وحقائق قطعية ثابتة، والإيمان بالنبوات وختمها.. وسائر أركان الإيمان وأصوله.. ينبثق عن وحدة العقيدة بحقائقها وأصولها وحدة التصورات كلها.. وذلك أن الإسلام جاء بتصور واضح شامل عن الكون والحياة والإنسان، هذا التصور الواضح الشامل يتميز به الفكر الإسلامي عما سواه من التصورات الجاهلية، القديمة والحديثة على حدّ سواء..

فهي كلها يجمعها وصف الضلال والانحراف عن هدي الله سبحانه: ﴿فماذا بعد الحقّ إلا الضلال؟! فأنى تؤفكون﴾[1].

وهي كلها سبيل لتمزيق وحدة الأمة، وتفريق كلمتها، وشتات أمرها.. ولا سبيل إلى توحيدها إلا وحدة التصور المنبثق عن وحدة العقيدة كلها..

وينبثق عن وحدة العقيدة أيضاً: التقارب الفكري في الاجتهاد والرأي، ضمن الأصول الكلية، والقواعد التشريعية العامة.

فالثبات في العقيدة، وقيام الفكر الإنساني على أساسها ضمانة كبرى لسلامة الفكر الاجتهادي المبدع، الذي يواجه مشكلات الحياة ووقائعها المستجدة بما يلائمها من الحلول المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ..

وإنما قلنا التقارب الفكري في الاجتهاد، لأن الإسلام فتح باب الاجتهاد لمن تتحقق فيه أهليته، وشجع عليه، ضمن ضوابط

---

(١) من سورة يونس، الآية: ٣٢.

وحدود[1]، تمنع من الفوضى الفكرية، والتحلل والإباحية باسم الاجتهاد والتجديد..

ولم يرد الإسلام أن لا يكون خلاف في فروع الدين، لأن ذلك ضمانة خلود هذه الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وإنما أتى بنصوص عامة، وقواعد تشريعية، تستوعب مصالح الناس واحتياجاتهم، وتطورات أوضاعهم ومجتمعاتهم..

بل إن الإسلام وعد المجتهد بالأجر والثواب، ولو أخطأ في اجتهاده، وهذا يقتضي أن الإثم محطوط عنه، أخذاً بعموم قوله ﷺ:

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[2].

وقد وقع الاختلاف في الاجتهاد على عهد النبي ﷺ، في مناسبات متعددة. ولم يعنف، ﷺ، أحداً، بل أقرّ كل مجتهد على اجتهاده، ومضى على ذلك سلف هذه الأمة الصالح من الخلفاء الراشدين، وعامة الصحابة، رضي الله عنهم، فمن بعدهم،

---

(١) تعرف بالرجوع إلى كتب أصول الفقه، وكتب خلاف الفقهاء، ولعل من أحسن ما كتب في هذا العصر، مما يناسب عامة المثقفين، ولا ينزل عن مستوى الخاصة، كتاب «دراسات في الاختلافات الفقهية» للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني.

(٢) رواه الشيخان وأبو داود عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، كما في مجمع الفوائد: ١/ ٧٣٠. وانظر «دراسات في الاختلافات الفقهية»، ص ١٠٨، ١٠٩.

ولم يفهم أحد من سلف هذه الأمة أن هذا النوع من الاختلاف سبب في اختلاف كلمة الأمة، وتصدع بنيانها، كما يفهم بعض الناس اليوم، ويعدون هذا الخلاف المشروع من التفرق في الدين، والانقسام إلى شيع وأحزاب.. كل حزب بما لديهم فرحون.. ويشنعون على المذاهب الفقهية، ولو فهموا الخلاف على حقيقته لما خرجوا به عن دائرته، وكانوا سبباً في توسيع شقة الخلاف بين المسلمين[1].

* * *

ونقف عند العبادات وقفة موجزة، لنستجلي دورها في تحقيق وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، والتأليف بين قلوبهم، ولا نستطيع أن نفصّل القول فيها، لأن ذلك يخرجنا عن طبيعة بحثنا، ومناسبة هذا السياق.. وإن كان هذا الموضوع لجديراً أن يفرد بالبحث المستقل، والدراسة التفصيلية..

ونبدأ بالصلاة؛ وأول ما نلاحظ فيها أن الإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يعيش فيه، ولكنه دعاه دعوية قوية إلى أدائها في جماعة؛ وبخاصة في المسجد: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾[2]، وهمّ الرسول ﷺ أن يحرّق

---

(١) وقد أصدر مجلس المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في دورته العاشرة المنعقدة عام ١٤٠٨هـ قراراً بشأن الخلاف الفقهي، يشكل إجماعاً من كبار علماء الأمة وفقهائها على أن الخلاف الفقهي بين علماء الأمة من حكم الله البالغة، ورحمته بهذه الأمة، وتوسعته عليها في أمر دينها وشريعتها. انظر نص القرار في العدد الثاني من مجلة المجمع الفقهي، ص ٢١٩ ــ ٢٢٢.

(٢) من سورة البقرة، الآية: ٤٣.

على قومٍ بيوتهم لأنهم يتخلّفون عن الجماعات[1]، وفضّل الإسلام صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبعٍ وعشرين درجة[2]. . وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يعدون المتخلف عنها منافقاً معلوم النفاق. . وكان الواحد منهم لا يتخلف عنها في المرض الشديد. . بل يؤتى به يهادي بين الرجلين ــ يسند ــ حتى يقام في الصف[3].

يجتمع المسلمون في مسجد حيهم لصلاة الجماعة، لا فضل لأحد على أحد، فهم جميعاً في بيت الله تعالى، الأمير إلى جانب الخفير، والغني بجوار الفقير، والسيد ملاصق للخادم، والعالم عن يمينه عامل، وعن يساره فلاح. .

«فليس للمسجد لائحة تخصص الصف الأول للوزراء، والصف الثاني للنواب، والثالث للمديرين، أو موظفي الدرجة الأولى، أو كبار الملاّك. .

«وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد، فمن بكّر في الذهاب إلى المسجد احتلّ مكانته في مقدّمة الصفوف أيّاً كانت منزلته وعمله في الناس.

يقول الدكتور محمد إقبال:

«إن اختيار قبلة واحدة للمسلمين، أريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة، وهيئتها على العموم تحقق الإحساس بالمساواة

---

(١) و (٢) كما جاء هذا في حديث متفق عليه.

(٣) جاء هذا في حديث ابن مسعود، رضي الله عنه، عند مسلم، وقد سمّى صلاة الجماعة من سنن الهدى. . ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. . .

الاجتماعية، وتقوّي أواصره، بقدر ما تتجه إلى القضاء على الشعور بالطبقات، أو تفوق جنس من المتعبدين على جنس آخر..

«إن ثورة روحية هائلة تحدث لو حمل البرهمي الأرستقراطي المختال في جنوب الهند على الوقوف مع المنبوذ كتفاً إلى كتف في كل يوم!!

«إن وحدة الذات المحيطة بكل شيء، التي تخلق جميع الذوات، وتكتب لها البقاء، هي التي تصدر عنها الوحدة الضرورية لجميع البشر، وانقسام البشر إلى أجناس وأمم، وقبائل قصد به كما جاء في القرآن، سهولة التعارف لا غير..

«وعلى هذا فإن صلاة الجماعة في الإسلام إلى جانب ما لها من قيمة فكرية، تشير إلى الأمل في تحقيق الوحدة الضرورية للبشر، كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التي ميّزت بين إنسان وآخر...»[1].

«ولم يملك كثير من المستشرقين أنفسهم من الإعجاب بالصلاة، وتأثيرها العميق في النفس البشرية، وبخاصة صلاة الجماعة، التي تميز بها الإسلام، وهي مظهر من مظاهر وحدة المسلمين.. وتوحي بأسمى المبادىء الإنسانية والاجتماعية، التي لم يعرفها غير المسلمين إلا في عصر قريب..

«من ذلك ما قاله الفيلسوف الفرنسي «رينان»، على الرغم مما له من شطحات عن الإسلام والعرب:

---

(١) «تجديد الفكر الديني»: د. محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص ١٠٨؛ وانظر العبادة في الإسلام، ص ٢٤٣.

«إنني لم أدخل مسجداً من مساجد المسلمين من غير أن أهتز خاشعاً، وأن أشعر بشيء من الحسرة على أني لست مسلماً...»، فليسلم إن كان صادقاً.. وهذا ما يريده الإسلام..

ويقول «توماس أرنولد» عن الصلاة:

«هذا الفرض المنظم من عبادة الله، هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية.. فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس...»، ثم قال:

«ولننتقل من صلاة الفرد إلى صلاة الجماعة، فنقول: إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصلّ في وسط المسجد الجامع بمدينة «دلهي» بالهند، يوم الجمعة الأخيرة من رمضان، وكلهم مستغرقون في صلاتهم، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية في كل حركة من حركاتهم.. نقول: إنه لا يتأتى لأحد أن يكون قد رأى ذلك المشهد، ألا يبلغ تأثره به أعماق قلبه، وألا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها...»[1].

وهذا مما يريده الإسلام من مشروعية صلاة الجماعة..

والمسلم ينتمي للجماعة، ويستشعر ارتباطه بالمسلمين، حتى في صلاته الفردية، فيقول في صلاته: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فهو من عباد الله الصالحين، في كل مكان وزمان،

---

(١) انظر «العبادة في الإسلام»: د. يوسف القرضاوي، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

يشاركهم ويلتقي معهم على دين الإسلام، ويعلن ولاءه وإخاءه لهم، وكفى بذلك ربطاً لقلوب المؤمنين وإشعاراً للوحدة الإسلامية[1].

ومن أوضح ما يبين أثر صلاة الجماعة في وحدة المسلمين، وتأليف قلوبهم، وأن ذلك يعدّ هدفاً أكبر من أهدافها.. أن النبي ﷺ شدّد في أحاديثه ووصاياه، وممارسته العملية مع أصحابه، على تسوية الصفوف في الصلاة، وربط ذلك بوحدة الكلمة، واجتماع الشمل، وحذّر من اختلاف الصفوف، فإن وراءها اختلاف الوجوه، الذي هو كناية عن فتور العلاقة، وضعف الروابط، وبعده اختلاف القلوب، الذي يدل على الشحناء والبغضاء، وتقاطع الأمة وتفرّقها..

ففي الحديث عن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتسوّنّ صفوفكم، أو ليخالِفنّ الله بين وجوهكم»[2].

وعن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، قال:

«كان رسول الله ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية، يمسح صدورنا، ومناكبنا، ويقول: «لا تختلفوا، فتختلف

---

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب «الأركان الأربعة» لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص ٤٥.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢/١٧٣؛ مسلم: ٤٣٦ و١٢٨. انظر رياض الصالحين، ص ٤٤٣.

قلوبكم»، وكان يقول: «إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول»[1].

ثم تأتي صلاة الجمعة، جامعة للجماعات، ولذا كان الأصل أن تكون في مسجد واحد في المدينة، أو أقلّ عدد ممكن من المساجد، يجتمع المسلمون في مسجد واحد، مرة احدة في كل أسبوع، فيكون ذلك أدعى للائتلاف والاتحاد، وأبعد عن التدابر والاختلاف.. يستمعون الموعظة، وما يهمهم من شؤون دينهم، ويتعرّفون على موقف الإسلام مما يستجد في حياتهم، فيصدرون عن وحدة في المفاهيم ووحدة في المواقف، فتتقارب القلوب، وتلتقي، وتستقيم العلاقات وتستقي من منهج الإسلام وشرعته..

ثم تأتي صلاة العيدين في السنة مرتين تجمع أهل البلدة كلهم في المصلّى في صعيد واحد.. كأنهم في تظاهرة دينية فريدة، تفصح عن وحدة الأمة، وتماسك كيانها، واجتماع شملها..

يقول شيخ الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي، في كتابه النفيس: «حجة الله البالغة»:

«إن كل أمة لا بد لها من عرضة، يجتمع فيها أهلها، لتظهر شوكتهم، وتعلم كثرتهم، ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء، وذوات الخدور، والحيّض، ويعتزلن المصلى، ويشهدن دعوة المسلمين، ولذلك كان النبي ﷺ يخالف في الطريق

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن: ٦٦٤؛ والنسائي: ٢/٩٠؛ وصححه ابن حبان: ٣٨٦، المرجع السابق.

ذهاباً وإياباً، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين»[1].

ولهذا البعد السياسي الظاهر أقدمت حكومات بعض الدول الإسلامية على منع المسلمين من أداء صلاة العيدين في المصلىٰ مع أن دافعهم إلى ذلك إنما هو إقامة سنة مهجورة..

ويشبه صلاة العيدين صلاة الاستسقاء فهي مظهر لوحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتآلف قلوبهم..

وشرع الله في الجهاد في سبيله أن تصلى الصلاة بصفة خاصة، تسمى: «صلاة الخوف» وهي تصلى جماعة، وقد يقول الإنسان بنظره القاصر: أما كان للمسلمين أن يصلوا فرادى، وهم في حالة الحرب، ومصلحة الحرب تقتضي أن يتفرقوا عن أعين أعدائهم، فلا يجتمعوا أمامهم، كيلا يسهل على عدوهم ضربهم في تجمعهم، وخاصة في هذا العصر؟ فلِم كانت صلاة الخوف؟، ولِم الحرص على الجماعة في الحرب؟.

إن كثيراً من العلماء عندما يبحثون ذلك يستنبطون منه فضل صلاة الجماعة فحسب، وأن الإسلام حرص عليها حتى في أرض المعركة..

ولكن الحكمة الأجل، والمصلحة الأعلى، في كيفية صلاة القتال، أن يظهر المسلمون أمام عدوهم أنهم أمة واحدة، وصف واحد، وبنيان مرصوص، وأن قلوبهم متآلفة، كما أن صفوفهم منتظمة متراصة، وأنهم مجتمعون على إمامهم في الحرب والقتال،

---

(١) «حجة الله البالغة»: ٢/٢٣. انظر الأركان الأربعة، ص ٦١.

كما أنهم مجتمعون عليه في الصلاة، لا يتحركون إلا بحركته، ولا يسكنون إلا بسكونه، ولا يتقدمون عليه ولا يتأخرون..

ومن هنا جاء في التاريخ الإسلامي، أن رستم قائد الجيوش الفارسية، نظر إلى المسلمين وهم يصلون بجماعة، فقال والحسرة والأسى يأكلان قلبه الذي يتفطر من الغيظ: «أكل عمر كبدي، يعلم الكلاب الآداب...».

وما درى أن الإسلام هو الذي صنع عمر، رضي الله عنه، وجنود عمر!.

ونختم حديثنا عن الصلاة، ودورها في جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم بكلمة جامعة لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، إذ يقول، حفظه الله، وأمدّ في عمره:

«وقد كان للجمعة والجماعة، ومحافظة المسلمين عليها في الأمصار والأقطار، فضل كبير، في سلامة هذا الدين، وسلامة الشريعة الإسلامية، والأوضاع الدينية، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه، وبعدها عن تحريف المحرفين، وعبث العابثين فلو كان المسلمون ـ أعاذهم الله عن ذلك ـ تركوا الجمعة والجماعة، وانفردوا بعباداتهم وصلواتهم في بيوتهم، وقاموا بها منفردين منعزلين، موزّعين مشتتين، لحرّفت هذه الصلوات، ومسخت مسخاً كبيراً، وأفقدها أصالتها، ووضعها الأول، وتنوّع المسلمون فيها، وصاروا فيها فرقاء وأقساماً، كما كانوا في كثير من مظاهر حياتهم المدنية، وآدابهم الاجتماعية، وكانت للصلاة أنماط

ونماذج، محلية وفردية، كما كانت لليهود والنصارى، وكما هو معلوم وشائع في ديانات الهند وطوائفها الدينية، فقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين في العبادات، وإحكام الدين من التحريف»[1].

ثم نأتي إلى الزكاة.. تلك الفريضة العظيمة، التي قرنها الله سبحانه بالصلاة في كتابه عشرات المرات، ورتّب عليها، وعلى إقامة الصلاة، الأخوة في الدين، والاتصال بجماعة المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإخوانكم في الدين﴾[2].

ولا عجب في ذلك، فإذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربه، ومعراجاً لروحه وقلبه، مع ما فيها من الصلة بالجماعة والانتساب إليها، فإن الزكاة، صلة بين الإنسان ومجتمعه.. إنها طهارة للنفس، وللمجتمع كله أغنيائه وفقرائه، من عوامل الهدم والتفرقة، والتفاوت والصراع، والانقسام والفتن الهوج[3]..

والإسلام ينطلق في تقرير فرضية الزكاة، وجميع الحقوق المالية من إيمان المؤمن وتصوره أن كل ما في الكون إنما هو ملك الله، وأن المال ماله، والإنسان مستخلف فيه مؤتمن عليه..

---

(١) «الأركان الأربعة»، ويقول المؤلف في الهامش إن الفكرة مقتبسة من كتاب: «حجة الله البالغة» للإمام ولي الله الدهلوي.

(٢) من سورة التوبة، الآية: ١١.

(٣) من كتاب: «العبادة في الإسلام»، بتصرف.

﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[1]، وأن مصيره، ومصير ماله لله وارث السموات والأرض.. ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله، ولله ميراث السموات والأرض...﴾[2].

ولقد كانت أعقد مشكلة واجهت البشرية منذ زمن بعيد، مشكلة التفاوت في المجتمعات بين الأغنياء والفقراء، وكيف يمكن أن يستأصل النزاع النفسي والعملي بين الفئتين؟ وكيف يمكن أن يتماسك المجتمع وبين أبنائه من تؤرقه بطنته وتخمته، وجواره من لا يستطيع النوم بجوعه وشدة حاجته..

وتفاوتت مذاهب الأرض، وآراء البشر القاصرة المحدودة، النابعة من الأهواء والشهوات والنزوات..

فذهب فريق من الناس إلى السلبية في الحياة، والنظر إلى متطلباتها ومتعها نظرة ازدراء وتأثم.. واحتقار الجسد وحاجاته، ومعاكسة الفطرة ودوافعها، ومحاربة احتياجاتها ورغباتها..

ولا شك أن هذا المذهب مصادم لنواميس الحياة، مهدم لبناء المجتمعات، قاتل لروح الإبداع والحيوية، محكوم عليه بالقتل على يد أبنائه ومعتنقيه، قبل أن يقتل ويهدّم..

وذهب فريق آخر؛ إلى تقديس الفرد، ودوافعه ورغباته، وإطلاق حرياته ونزعاته.. ليبدع وينتج، ويجمع ويثري.. على حساب الأمة، وعلى حساب الآخرين.. وأن مصلحة الأمة هي عين

---

(١) من سورة الحديد، الآية: ٧.

(٢) من سورة الحديد، الآية: ١٠.

مصلحة أفرادها.. فهي تتحقق آلياً من خلال تحقيق مصالح الأفراد، وإطلاق حرياتهم بلا حدود.. وإشباع أنانياتهم ونزواتهم..

فكانت الفردية الطاغية، والرأسمالية المفسدة الباغية..

واتجه فريق ثالث اتجاهاً ينزع إلى الحقد، ويقعّده ويفلسفه.. فقرّر أن الأمة ـ ممثلة بالدولة، التي يمثلها ويحكمها حزب فرد ـ هي التي تملك الثروات، وتتمتع بالملكيات.. وتعطي كل إنسان كفايته، وتحدّ من أنانيته وأطماعه، وتمنع الفجوة أن تحدث بين الأغنياء والفقراء، بأن تجعل الجميع في الفقر سواء!. تعطيهم حاجتهم، وتحجب عنهم ما يجعل حياتهم فيها التفاوت والاختلاف، وتتصرف هي في الأموال، بما يحقق مصالح الأمة العليا، وكأن الجميع آلة صماء عمياء تعمل بين يدي إنسان عاقل، يحركها كيف يشاء، أو كقطيع من الأغنام، يأخذ قوته، ويؤخذ لحمه وحليبه.. وليس له من أمر نفسه شيء..

فكانت الشيوعية، التي انطلقت من الأحقاد، وأجّجتها وأوقدت نيرانها في المجتمعات، وعاكست الفطرة البشرية، وحاولت تحطيم نزعاتها وميولها، وقتلت روح الإبداع والتنافس لدى الإنسان، واستبدلت بفئة الأثرياء طبقة جديدة، تجمع إلى الثراء الفاحش، والتقلب في أنواع الرفاهية، التسلط على رقاب الناس، واستعبادهم، ومصادرة حرياتهم، وفرض السيطرة على أفكارهم ومشاعرهم..

وبقيت تلك المشكلة مستعصية على الحلّ، تهدد المجتمعات بالتفكك والانقسام والتناحر والخصام، أما الإسلام،

فإنه يقف شامخاً بمبادئه السامية، ومنهجه الرباني، أمام هذه المبادىء الهزيلة الضالة، ليجمع بين مصلحة الأمة، ومصلحة الأفراد، في وحدة وانسجام، وتوازن دقيق، لم يعرف له التاريخ الإنساني مثيلاً..

ويكفي الإسلام فخراً أن المنصفين من غير المسلمين شهدوا بفضل الإسلام على البشرية، في حلّ المشكلات التي عجزت الأنظمة البشرية عن حلها، فكان الإسلام هو الحل الذي يحقق روح الوحدة والانسجام في كل مجتمع يهيمن عليه بنظامه، ويبنيه.

يقول «ليودوروش»: «لقد وجدت في الإسلام حلّ المشكلتين اللتين تشغلان العالم: **الأولى**: قول القرآن: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1]، **والثانية**: «فرض الزكاة على كل ذي مال»[2].

ويقول بعض الغربيين: «... وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة، فضريبة الزكاة، التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار، والأغنياء على دفعها، لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها، هدّمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة، ووحدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامي على أنه لا يقوم على أساس الاثرة البغيضة».

ويقول «ماسينيون» المستشرق الشهير:

«إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق

---

(١) من سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) «العبادة في الإسلام»، ص ٢٧٨.

فكرة المساواة، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال، وهو يناهض الديون الربوية، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية، ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية، ورأس المال التجاري، وبذلك يحلّ الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية»[1].

على أن الزكاة ليست ضريبة محضة كما يفهم بعض المستشرقين، ولكنها عبادة لله تعالى، يؤديها المؤمن محتسباً مطيعاً، وهي من أعظم القربات لله سبحانه..

وهي من جهة أخرى ليست كل ما يكلّف به المسلم، وإنما هي الفريضة والركن، الذي يفتح أبواب الخير، أمام المسلمين، ويمثل الحد الأدنى الذي لا يسع المؤمن التخلف عنه.

ثم إن الإسلام يكلف المسلم نفقات واجبة، تجاه قرابته ورحمه، وكفارات مالية في مناسبات معينة، ويدعوه إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى، في كل مناسبة، ويحثه على ذلك، كما يحمله مسؤولية أخلاقية ومادية عن جواره وإخوانه المسلمين، ويرغبه بالبذل والجود، وبالإيثار على نفسه، ولو كان به خصاصة: ﴿ويؤثرون على

---

(١) «العبادة في الإسلام»، ص ٢٧٩، وقد نقل المؤلف مقالة للشيخ محمد رشيد رضا، من تفسير المنار؛ أثبت فيها أن تخلف المسلمين عن أداء الزكاة، والبذل في وجوه الخير، ومصالح الأمة، كما أمرهم الله، أدى بهم إلى اضطراب مصالحهم المالية والسياسية، وأن يكونوا عالة على غيرهم، من أهل الديانات الأخرى، فارجع إلى هذا المقال فإنه مفيد.

أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شحّ نفسه، فأولئك هم المفلحون. . .﴾[1].

ويعد الإسلام على ذلك أعلى الدرجات، وأرفع المنازل، يقول تعالى:

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون﴾[2].

ويرفع الله همم المؤمنين إلى بلوغ ذروة البر، بالإنفاق مما يحبون، يقول سبحانه: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شيء، فإن الله به عليم﴾[3].

وعن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضاً» وشبّك بين أصابعه»[4].

وعن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) من سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) من سورة البقرة، الآيتان: ٢٦١، ٢٦٢.

(٣) من سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٤) رواه البخاري: ٥/٧٢، ١٠/٢٧٦؛ ومسلم: ٢٥٨٥.

«مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال:

«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[2].

ولقد سرت روح المواساة والتكافل، والبذل والإحسان في المجتمع الإسلامي الأول حتى كان حقّاً كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد. يحسّ كل واحد بحاجة الآخرين ولا يرى أحداً أولى بسدّها منه، ولا يرى نفسه أحق بماله من أخيه.

ويقول ابن عمر، رضي الله عنهما: «لقد أتى علينا زمان، وما أحد أحقُّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم».

وقد بلغت حوادث حسن الجوار قمة الإيثار، يقول ابن عمر، رضي الله عنهما: «أُهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: فلان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فبعث ذلك الإنسان إلى الآخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر، حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة».

---

(١) رواه البخاري: ١٠/٣٦٧؛ ومسلم: ٢٥٨٦؛ ورواه الإمام أحمد: ٤/٢٧٠.

(٢) رواه البخاري: ٥/٧٠، ٧١؛ ومسلم: ٢٥٨٠.

وقال محمد بن إسحاق: «كان ناس بالمدينة، يعيشون لا يدرون من أين يعيشون؟، ومن يعطيهم؟ فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل، بما يأتيهم به، ولما مات، وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين»[1].

وتوارثت الأجيال الإسلامية اللاحقة هذه الروح العالية من الأخوة الإيمانية، والإحساس المرهف بحاجات المسلمين، والرقة البالغة لما ينزل بهم من ضيق أو شدة، فلا يمكن لباحث أن يجمع ذلك خَبراً، أو يحيط به خُبراً. . إذ إن ذلك مبثوث في فئات الأمة كلها، شائع في أحوالها وعلاقاتها.

ثم خلف من بعدهم خلف ضعف فيهم الإسلام، فضعفت أخلاقه ومبادئه، وانتشرت المادية وطغت روحها الأنانية الجشعة، حتى حكمت علاقة الولد بأبيه، وحتى اضطر الوالدان في بعض مجتمعات المسلمين ألا يحصلا على نفقتهما الواجبة على ولدهما الغني إلا بدعوى ترفع، وقضاء من حاكم ملزم. .

واستبدل كثير من المسلمين الاستغلال الأثيم، بالمواساة الرحيمة، والقسوة والفظاظة في المعاملة، بالإحسان والرحمة، وشاع التعامل بالربا، الذي هو نقيض الزكاة وروحها، وما يتصل بها من أخلاق الإسلام، ومبادئه السامية، فتقطعت الأرحام، وفسدت العلاقات، وتحطمت روابط المجتمع التي تمسك بكيانه، وتمزقت

---

(١) استفدت هذه الأمثلة والنماذج من كتاب: «الأركان الأربعة»، ص ١٦٤، ١٦٥.

وشائجه، فضرب الله أكثر المجتمعات بالفقر الروحي، والإفلاس المادي، وابتلاها بالمبادىء الهدّامة، التي كانت نقمة عاجلة من الأغنياء الذين منعوا الزكاة، وفرطوا في حقوق الأمة، وأشاعوا التعامل بالربا ومفاسد المادية الطاغية، والاستغلال الجشع: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنةً، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[1].

ثم نأتي بعد ذلك إلى الصيام، ودوره في تحقيق وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم.

تأتي هذه الفريضة شهراً كل عام قمري، لتعيد للمسلم التوازن الذي ينبغي أن يكون عليه بين مطالب جسده، وأشواق روحه وغذائها وسموّها..

فالإنسان إذا تغلبت عليه الطبيعة الحيوانية، وملكت زمام حياته، واستحوذت على مشاعره وحواسه، وأصبحت «معدته» القطب الذي تدور حوله الحياة، شقّ على الإنسان كل ما يحول بينه وبين رغبته، وما يشغله عن إرضاء نهمته، وغفل عن كل ما يذكّره بمبدئه ومصيره، وما يصوّر له الحساب والاحتساب والجزاء والعقاب، فلا يجد في أعوام طوال وقتاً صافياً، وقلباً واعياً، وعقلاً يقظاً، وضميراً حيّاً، فتثقل عليه العبادة والذكر، وما يتصل بهما»[2] ويصبح همه بطنه وفرجه، والسعي وراء أنانيته وطموحاته..

---

(١) من سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) «الأركان الأربعة»، باختصار وتصرف يسير، ص ١٨٤.

لا يفكر إلا في ذاته، ولا يفكر في أمته ومجتمعه إلا تفكير النهم الجوعان الذي لا يسدّ نهمه وجَوعته إلا أن يكون الجميع عبيداً لشهواته وأهوائه.. فكيف يحسّ بآلام أمته، أو يتصل بهمومها، ويتحمل فيها قدراً من المسؤولية، ويؤدي لها شيئاً من الحق؟!..

«ومن هنا جاءت النبوة تغيث الإنسانية المهددة من المادية الطاغية، وتديل الروح والأخلاق، والمشاعر اللطيفة، والقلب المخنوق المفلوج من طغيان الشهوات، وقسوة المعدات، وتقيم الموازين القسط في الحياة، وتعدّ الإنسان إعداداً جديداً لتحقيق الغاية التي خلق لها، وهي العبادة، والوصول إلى الكمال المطلوب، وتحقيق الخلافة في الأرض...»[1].

فكانت فريضة الصوم في هذه الشريعة، لتهذّب للنفس أخلاقها، وتعدّل مزاجها وتشحن «بطارية» عواطفها الإنسانية النبيلة، فلا تزال تولد لها الحرارة، وتنير لها السبيل، وتعيدها إلى التوازن الصحيح الذي يريده لها الإسلام.

وكانت هذه الفريضة «تذكيراً عملياً بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة، ولا لسان فصيح، ولكنه تذكير عملي، يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء، فإن الذي نبت في أحضان النعمة، ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، لعله يظن أن الناس كلهم مثله...».

«وقد روي أن يوسف عليه السلام كان يكثر الصوم، وهو على خزائن الأرض، وبيده المالية والتموين، فسئل في ذلك، فقال:

---

(١) «الأركان الأربعة» باختصار وتصرف يسير، ص ١٨٤، ١٨٥.

«أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقير»[1].

ومن هنا كانت الثمرة العملية القريبة لهذه المعاني التي يريدها الإسلام أن تتحرك يد المسلم بالجود والإحسان في رمضان، وأن يتنافس مع إخوانه في فعل الخير، وبذل المعروف، فقد جاء في الحديث: «من فطّر صائماً، كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»، رواه الترمذي عن زيد بن خالد الجهني، رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح[2].

وفي الحديث أيضاً: «من تقرّب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدّى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فريضة فيه، كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة...».

«من فطّر فيه صائماً، كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار...»[3].

ونبينا عليه الصلاة والسلام، كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يأتيه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة...»[4].

---

(١) «العبادة في الإسلام»، ص ٢٩٣.

(٢) الترمذي: ٨٠٧؛ وابن ماجه: ١٧٤٦؛ والإمام أحمد: ٤/١١٤ و١١٦، وإسناده صحيح؛ وصححه ابن حبان: ٨٩٥.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي، رضي الله عنه، ورواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال: صح الخبر. انظر الترغيب والترهيب: ٢/٩٥.

(٤) رواه البخاري ومسلم، والترمذي والنسائي وابن ماجه، والدارمي. راجع المعجم المفهرس: ١/٣٩٧.

ومن هنا كان الصيام من هذه الناحية دعامة أساسية للزكاة ومقاصدها وأهدافها، وما يتصل بها من تشريعات ومثل، وما تحققه في حياة الأمة من ترابط وثيق، وتكافل عميق، واتّحاد في المشاعر والأحاسيس، يجعل الأمة كلها جسداً واحداً وروحاً واحدة.. وبعد هذه الآثار النفسية والتربوية، للصيام، التي تنعكس على علاقة المسلم بمجتمعه بأحسن الآثار والنتائج الإيجابية، من الإحسان والمواساة، والبر والمعروف، والتواصل والتكافل.. فإن للصيام بمظهره العام.. صورة عظيمة من صور وحدة الأمة، واجتماع كلمتها، وتوحيد صفوفها، وتذويب الفروق بين أبنائها..

«يلتقي على صعيده المسلم الشرقي مع المسلم الغربي، والجاهل مع العالم، والفقير مع الغني، والمقصر مع المجاهد، والحاكم مع المحكوم.. ففي كل بلد رمضان، وفي كل قرية وبادية رمضان، وفي كل قصر وكوخٍ رمضان، فلا افتيات في الرأي، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم، يصومون صومة رجل واحد، ويفطرون فطر رجل واحد.. فكل ذي عينين يستشعر جلاله وجماله، أينما حلّ ورحل في العالم الإسلامي، المترامي الأطراف، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله، فيحجم المفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة أو الماجنين، فهو صوم اجتماعي عالمي، له جوّه الخاص»[1] وتأثيره الأخّاذ..

---

(١) «الأركان الأربعة»، ص ٢١٤، بتصرف وزيادة.

وإن في هذا المظهر العام للصيام لدرساً عملياً لأولئك المتغربين من أبناء هذه الأمة، الذين يريدون أن يسلخوها عن دينها وقيمها... إن هذه الأمة لا تجتمع إلا على الإسلام وشريعته، ولا تتحد إلا بالإسلام وقوته.. وإن أهواء البشر المشرِّقة أو المغرِّبة تفرّقها وتشتتها، وتجعلها متناحرة متباغضة.. تائهة ضائعة..

ولقد أدرك أعداء الإسلام هذا المظهر العام لقوة المسلمين ووحدتهم في الصيام، وأن صيام رمضان عامل من عوامل اجتماع كلمة الأمة، وتوحيد صفوفها، فلا يزالون يدأبون في توهين عرا المسلمين، وإشاعة الخلاف فيما بينهم، وتصوير مسائل فرعية من مسائل الصيام أنها محل خلاف عميق بين المسلمين، ومظهر من مظاهر تفرقهم في الصوم، واختلاف كلمتهم.

يرى أولئك الأعداء ما هم فيه من تفرق في صيامهم، وشتات في أمرهم، ويرون اجتماع الأمة الإسلامية على الصيام، وما أكرمهم الله به، إذ جعل شريعتهم محفوظة مصونة.. فيحسدون المسلمين على ما آتاهم الله من فضله ورحمته.. ويقولون في كل رمضان في إذاعاتهم، ووسائل إعلامهم: إن مسألة بدء الشهر وانتهائه محل خلاف كبير بين المسلمين، ويذكرون من بدأ الصيام في يوم كذا، ومن بدأ بعده.. وكذلك عند الانتهاء.. يريدون أن يجعلوا منها قضية تفرق الأمة، وتشتت شملها.. وهي مسألة فرعية، لا يرى فيها أحد من الفريقين أن صيام الآخر باطل، والخلاف فيها بين السلف قديم، ولا تحتاج إلى كل هذا الضجيج...

كما يحرك أعداء الإسلام أتباعهم الدائرين في فلكهم،

للتوهين من شأن الصيام.. وإثارة الشبهات حوله.. والدعوة إلى الإفطار حرصاً على زيادة الإنتاج، والدخل القومي.. وما إلى ذلك من الهراء..

كل ذلك حرصاً على تمزيق وحدة الأمة حول عبادة من أعظم العبادات، وشعيرة هي ركن من أركان الإسلام، تحقق للأمة وحدة روحية واجتماعية وخلقية..

﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

ثم نأتي بعد ذلك إلى فريضة الحج.. ودورها في تحقيق وحدة الأمة، واجتماع كلمتها..

يقول تعالى: ﴿إن أوّل بيت وُضِعَ للناس لَلَّذي ببكَّة مباركاً، وهدىً للعالمين﴾[2].

لقد أشارت هذه الآية الكريمة، إلى ما يرمز إليه الحج من وحدة الناس، على مبدأ واحد، ووجهة واحدة..

فالبيت العتيق أول بيت وضع للناس.. كل الناس.. فهو سبيل جمع الناس على صعيد واحد إذا كانوا قريبين، ووجهة واحدة إذا كانوا بعيدين..

وهو هدى للعالمين، إذ يجمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتباعد أقطارهم وأمصارهم.. واختلاف عاداتهم

---

(١) من سورة يوسف عليه السلام، الآية: ٢١.

(٢) من سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

وأعـرافهم.. يجمعهم على عقيـدة التـوحيـد، والملة الحنيفيـة السمحة، ويؤلف بين قلوبهم.. إذ وحدة الشعائر هي السبيل لوحدة القلوب والضمائر...

وقد تحدّث عن دور البيت العتيق في توحيد الأمة وجمـع القلوب، الإمام الرازي في تفسيره، بطريقته الفريدة، فقال، رحمه الله تعالى:

«... إن العاقل: يجب أن يستحُضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة، وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة؟! ولا شـكّ أنه يحصـل فيما بين هؤلاء أشخاص: أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية، ثم إن تلك الأرواح الصافية، إذا توجهت إلى كعبة المعرفة، وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسية، فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه، فتزداد الأنوار الإلـهية في قلبه، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سرّه، وهذا بحر عظيم، ومقام شريف، وهو ينبهك على معنى كونه مباركاً».

«وأما إن فسّرنا البركة بالدوام، والتفسير الأول هو تفسيرها بالنمو والتزايد، فهو أيضاً كذلك، لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين، والركـع السجود، وأيضاً الأرض كرة، وإذا كان كذلك، فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم، وظهر لثانٍ، وعصر لثالث، ومغرب لرابـع، وعشاء لخامس، ومتى كان الأمر كذلك

لم تكن الكعبة منفكة قطّ عن توجه قومٍ إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة[1]. . فكان الدوام حاصلاً من هذه الجهة، وأيضاً بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفاً من السنين دوام أيضاً، فثبت كونه مباركاً من الوجهين»[2].

* * *

إن الإسلام وهو الدين الخاتم لرسالات الأنبياء والمرسلين، جاء لتوحيد البشرية كلها على الحق، وجمع كلمة الناس جميعاً على التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى. . ومن هنا فهو يهدف على مستوى الإنسانية، أن يميز الأمة التي تدين به عن سائر أمم الأرض. . فهي الأمة القائمة على الحق، وما عداها فعلى ضلال وباطل. . ويريد أن يبرز هذه الأمة بين سائر الأمم أسرةً واحدة، وروحاً واحدة، فكان هدفاً من أهداف الإسلام الرفيعة، أن يتعارف أهل الإسلام على اختلاف لغاتهم وأجناسهم، وأن يلتقوا على تباعد أقطارهم، في صعيد واحد. . ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. . .﴾[3].

وقد سبق أن بيّنّا أن الصلاة تحقّق جمع المسلمين على مستوى البلد الواحد، والقطر الواحد. . ولكن الإسلام لم يقف عن هذا الحدّ. . إنه يريد أن يحقّق التعارف الإسلامي، بين المسلمين على أوسع نطاق. . نطاق الأمة كلها. . وأن يشعر كل مسلم

---

(١) بل ولأداء كل فرض. . في كل وقت. .

(٢) «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي: ١٤٩/٨.

(٣) من سورة الحجرات، الآية: ١٣.

بالأخوة الإسلامية، والرابطة القلبية والروحية، والعضوية الحقيقية بجسد الأمة التي ينتمي إليها..

فهل يكلف كل مسلم أن يطوف أقطار الأرض، يحلّ ويرتحل، ليتعرف على المسلمين، ويقف على أخبارهم وأحوالهم؟!.

وما إمكان ذلك لكل مسلم؟ وما المدة التي يحتاجها مثل هذا العمل؟.

وهل تحقق هذه السياحة، بتلك الصورة، الغرض المطلوب على الوجه الأكمل؟..

ولئن كان الأمر كذلك ـ على عسره ومشقته ـ فهل يحقق إلا التعارف بصورة فردية محدودة، لا تحقق غرضها وهدفها على مستوى الأمة كلها، ولا يحسّ بها أحد من أمم الأرض كلها.. ولا يلقي لهذا العمل بالاً، ولا يقيم له وزناً..

لقد جاء تشريع الحج، أعلى قدراً، وأوفى غرضاً، وأجلى بياناً..

إنه رحلة فريدة في عالم الأسفار والرحلات.. وسياحة عبادية.. ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى بلد الله الأمين، الذي أقسم الله به في القرآن الكريم، لأداء شعائر لله تعالى، من الطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الله تعالى رمزاً لتوحيده، ووحدة المؤمنين به، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم في صلاته، أينما كان على هذا الكوكب، (وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم

شطره. . .﴾[1]. . ثم الوقوف في صعيد واحد[2] بعرفات. . وقد امّحت مظاهر الاختلاف، وفوارق الدنيا عن الجميع. . فلباسهم واحد. . ودعاؤهم واحد، وهتافهم واحد. . وشعائرهم واحدة. .

إننا نرى في الحج معنى الوحدة الإسلامية لهذه الأمة كلها «جلياً كالشمس، وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في الهتاف والقول. . لا إقليمية ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعاً مسلمون، بربّ واحدٍ يؤمنون، وببيت واحدٍ يطوفون، ولكتاب واحد يقرأون، ولرسول واحد يتّبعون، ولأعمال واحدة يؤدون، فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غوراً»[3].

«إن الذي يعظّم علم وطنه، يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها مادياً ولكنه يشعر أنها ترمز إلى كل معاني المجد والسموّ التي يعتز بها وطنه، وأنها تصور أدقّ المشاعر في وطنيته، فهو يحيي هذا العلم، ويعظّمه، ويحترمه ويكرمه، لهذه المعاني التي تجمّعت جميعاً، وتمثّلت فيه. .

«والكعبة المشرفة علم الله المركوز في أرضه، ليمثّل به للناس أوضح معاني أخوّتهم، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم، وإنما كانت بناءً ليكونوا كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضاً. .

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) استفدت هذه الفكرة من كتاب «العبادة في الإسلام»، ص ٢٩٦.

(٣) «العبادة في الإسلام»، ص ٣٠٦، بزيادة يسيرة.

«وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء، ونقطة التمييز في هذا البناء، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء، على الإيمان والتصديق، والعمل والوفاء:

«اللهم إيماناً بك.. لا بالحجر..

«وتصديقاً بكتابك.. لا بالخرافة..

«ووفاء بعهدك.. وهو التوحيد الخالص، لا الشرك..

«واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ، محطم الأصنام» لا اتباعاً للأهواء ونزعات الشيطان..

«إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس معاني الإنسانية العالمية، والأخوة بين البشر جميعاً، ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾[1].

والحج أيضاً مؤتمر عالمي، يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي إسلامي، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة، بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته كل عام على المسلمين..

«فهناك يجد المسلم إخواناً له من قارات الدنيا الخمس، اختلفت أقاليمهم، وألوانهم ولغاتهم، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام، ينشدون نشيداً واحداً: «لبّيك اللهم لبيك».

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ١٢٥، وهذا المقطع من مقال بديع للإمام الشهيد حسن البنا، رحمه الله تعالى، نشر في مجلة الشهاب، العدد الثالث، ص ٥١، باختصار وتصرف يسير.

«إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى، وأكثر من إيحاء، إنه يحيي في المسلم الأمل، ويطرد عوامل اليأس، ويبعث الهمة، ويشحذ العزم، إن التجمع يوحي دائماً بالقوة، ويوقظ الآمال الغافية، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية..

إن هذا المؤتمر أعظم مذكر بأخوّة الإسلام، ورابطة الإيمان، هذا المؤتمر هو الفرن العالمي الذي تذوب في حرارته النزعات القومية والإقليمية والوطنية، وتختفي فيه كل الشعارات والجنسيات إلا شعاراً واحداً: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

«في هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم والفكر، ورجال الإصلاح، ورجال السياسة، فما أجدرهم، وقد التقوا على هدف واحد أن يتعارفوا، ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط وأحسن الوسائل، ليبلغوا الأهداف، ويحققوا الآمال..

ما أجدرهم أن يتأسوا بالرسول ﷺ إذ أعلن في حجة الوداع دستور الإسلام ومبادئه، وعهد إلى أمته وأوصاها..

وتأسى به أصحابه وخلفاؤه من بعده، فجعلوا من هذا الموسم السنوي العالمي ساحة لقاء بينهم، وبين أبناء الشعب القادمين من كل فجّ عميق، وبينهم وبين ولاتهم في الأقاليم فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية، فليتقدم بها إلى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب، وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيب ولا تحفظ، فيغاث الملهوف، وينصف المظلوم، ويرد الحقّ إلى

---

(١) من سورة الحجرات، الآية: ١٠.

أهله، ولو كان هذا الحقّ عند الوالي أو الخليفة. . .»[1].

ولقد أدرك أعداء الإسلام أن لهذه الفريضة فريضة الحج، بعداً سياسياً كبيراً في ربط قلوب أبناء الأمة، وإظهار وحدة كلمتهم، واجتماع شملهم أمام الأمم المتألّبة على الإسلام وأهله. . وأن هذه الفريضة ما دامت قائمة فلا مطمع لأعداء الإسلام في تمزيق جسد الأمة، والقضاء على أسباب وحدتها، فتعددت تصريحاتهم التي تعكس أهمية هذه الفريضة. وأثرها البالغ في جمع كلمة المسلمين، وإعاقة مخططات أعدائهم؛ «فقد كتب أحد المبشرين النصارى في تقرير له عن مدى جدوى التبشير في بلادنا الإسلامية، وخاصة في مصر، فكان مما قال فيه:

«سيظلّ الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي، ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي. . .»[2].

ويقول المبشّر الصليبي «وليم جيفورد بالكراف»: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية، بعيداً عن محمد وكتابه. . .»[3].

---

(١) ما بين الأقواس مقتبس من كتاب: «العبادة في الإسلام»، ص ٣٠٨، ٣٠٩، مع تصرّف في العبارات يتناسب مع طبيعة هذا البحث، واختصار غير مخلّ. . .

(٢) «العبادة في الإسلام»، ص ٣٠٨.

(٣) «تربية الأولاد في الإسلام»: ٢/٨٠٠.

ويصرّح ثالث بأحقاده السوداء على الإسلام والمسلمين، فيقول:

«إننا لن نستطيع القضاء على الشرق المسلم واستعماره، إلا بالقضاء على الخلافة وهدم الكعبة...».

وليس الأمر من قبيل المصادفة، أن نرى هذه الأحقاد العمياء، تلتقي في مواقفها وسلوكها مع مخططات الفرق الباطنية الخارجة عن الإسلام، وما قامت به من صدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام، وتقتيل المسلمين، وترويع الآمنين، ففي عام **٣١٩هـ** قام سليمان بن الحسن بن بهرام، الذي يعتبر مؤسس دولة القرامطة الحقيقي، ومنظم دستورها السياسي والاجتماعي، قام بمهاجمة مكة المكرمة، وفتك بالحجاج، وهدم زمزم، وملأ المسجد الحرام بالقتلى، ونزع الكسوة، وقلع باب البيت العتيق، واقتلع الحجر الأسود، وسرقه إلى الأحساء، وبقي الحجر هناك عشرين سنة إلى عام **٣٣٩هـ**. وكان بطشهم بقوافل التجار والحجاج، وترويع الآمنين سمة من سمات عهدهم الأسود..[1]

فلا عجبَ بعد ذلك إن قلنا: إن الحج ضمانة من ضمانات وحدة الأمة الإسلامية، واجتماع كلمتها، وخير سبيل لدعاة الإسلام، لإيقاظ الأمة من سباتها، وتحريك هممها وعزائمها لتنهض من كبوتها وتستعيد مركزها بين أمم الأرض.. آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، داعية إلى الخير، حاملة للواء الحق، رائدة للحضارة الإنسانية، التي يريدها الإسلام..

---

(١) «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة»، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

ونختم حديثنا عن أركان الإسلام بعامّة، وعن الحج بخاصة، بكلمة لأحد الغربيين تعكس مدى فهمهم لأثر الحج في نفوس المسلمين، مما لا يدركه بعض المسلمين أنفسهم:

«إن الوحدة الإسلامية، إنما هي قائمة على ركنين هما أساساها، ولا ثالث لهما: الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، والخلافة..

«وقد غلب على رأي الكثيرين من رجال الغرب وهمٌ في هذا الموضوع، فهم ما برحوا يخالون الخلافة، لا الحج، العامل الأكبر والأشدّ الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولاً وعواطف تشاركاً مؤدياً إلى اعتزاز الوحدة، وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها، على أن هذا لمن الوهم الصرف، فالأمر حقاً على الضد منه..

«إن محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً، ولذلك ما زالت مكة المكرمة، حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مئة ألف حاجّ، وافدين من كل رقعةٍ من رقاع العالم الإسلامي، وهناك أمام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس، ويتباثّون العواطف الدينية، ويتباحثون في الشؤون الإسلامية، ثم ينقلبون إلى أوطانهم، نائلين لقب «الحاج» لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجله إخوانه، المسلمون، ويعلون منزلته بينهم ما دام حيّاً..

«فالمقاصد والأغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل إنما هي معلومة لا تحتاج إلى كبير إيضاح، بل يكفي أن نقول إن الحج إنما هو المؤتمر الإسلامي

السنوي العام، فيه تتباحث الوفود الإسلامية، والنوّاب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الإسلامي كافة في مصالح الإسلام، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط، ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الإسلام، والذبّ عن حياض المسلمين، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة. . .

«وفي هذا المؤتمر العظيم، كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية، وأبطالها، كعبد الوهاب، ومحمد بن السنوسي، وجمال الدين الأفغاني، تشعر بجلال الواجب الإسلامي المقدس، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الإسلام والمسلمين. . .»[1].

أما الحديث عن سائر شرائع الإسلام، ومبادئه وقيمه، فلا نستطيع الدخول فيه بتفصيل يتناول شرائع الإسلام، ونظمه الأسرية والاجتماعية، والاقتصادية والجنائية، والسياسية والدولية، ويكفينا الإجمال في هذه المناسبة، فنقول:

إنه لم يتح لأية أمة من الأمم، أو جماعة من الجماعات، من المقومات لوحدة صفها، وقوة كيانها، وتماسك بنيانها، ما أتيح للأمة الإسلامية فيما شرع الله لها من تشريعات حكيمة، ونظم شاملة دقيقة، كلها تهدف في أهم ما تهدف إليه تحقيق وحدة الأمة وتماسك بنيانها.

---

(١) «حاضر العالم الإسلامي»، تأليف الأمريكي لوثروب ستودارد، الفصل الثاني في الجامعة الإسلامية، الجزء الأول، ص ٢٨٩، وهو مطبوع مع تعليقات الأمير شكيب أرسلان.

بدءاً من بناء الشخصية الإسلامية، وتنظيم علاقاتها بالأسرة والقرابة، والرحم والجوار، والمجتمع والأمة. . وانتقالاً إلى تنظيم علاقات الأسرة، وإحكام روابطها. .

وانتهاءً إلى بناء المجتمع، وقيام علاقات أبنائه على أساس من الأخوّة الإسلامية، أو الحقوق الإنسانية، التي يكفلها الإسلام للذين يقيمون في ظلّ دولته. .

إن شرائع الإسلام ونظمه من أهم عوامل وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، فإن لم تجمع هذه الأمة شريعة ربها، وتلتقِ عليها، فهل تجمعها شريعة أخرى. . أو يمكن لها أن تلتقي على نظام آخر؟!.

إنها ستنطلق وراء أهواء تشتتها، وتفرّق صفها، وتفسد روابطها. . ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[1]. . وهذا ما هو حاصل في أكثر بلاد المسلمين اليوم. .

يقول بعض العلماء المعاصرين في بيان دور الفقه والتشريع الإسلامي في وحدة الأمة الإسلامية:

«ولقد كان الفقه الإسلامي، من أكبر العوامل في بناء هذه الوحدة الإسلامية، وكان من أمتن الأسس فيها، فإذا لم يبق لهذا الفقه حياة، وإذا ما صار أمره إلى أن يصبح رسوماً وأحاديث، فقد أوشك المسلمون يومئذٍ أن يعمهم الله بالفرقة، وأن يقطع أمرهم

---

(١) من سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

بينهم، وأن يتناكروا فلا يعرف بعضهم بعضاً، ولا يرجع آخرهم لأولهم، ولا يهتدي لاحقهم بسابقهم، ويومئذٍ لا تغني عنهم تلك الدعوة الجوفاء التي يتصايح بها من يزعمون أنهم يدعون إلى الوحدة الإسلامية، وهم يسكتون عن هذه المعارك الهدامة التي تنقضّ متتابعة على أسس هذه الوحدة الإسلامية، وتعمل فيها هدماً وتخريباً. . .»[1].

وتحدث الكاتب الأمريكي «لوثروب ستودارد» في كتابه: «حاضر العالم الإسلامي» في فصل الجامعة الإسلامية، عن التطور الاقتصادي، وصلته بالجامعة الإسلامية، فقال:

«. . . فما يجب اعتباره في هذا المقام، هو تبرير شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الإسلامية، ومنزلته فيها، وهذا الشأن هو عظيم جداً، لأن أوثق وحدة، وأمتن صلة، ظهرت في المسلمين حتى اليوم، إنما هي الوحدة الاقتصادية بلا مراء، ولا يغرب عن البال أن الروابط الدينية، والصلات الخلقية التهذيبية، التي تجمع بين المسلم والمسلم، ما انفكت تزيد في تواثق المسلمين وتآزرهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأنهم في المعمور الإسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض، وجانب يساند آخر، دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم، فنشأ فيهم نشء جديد، أبناؤه مقاديم، بُعَداءُ الهمة، أشدّاء العزم، فيهم التجار، وأرباب السفن البحرية،

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم. . .»: ٣٢٢/٤.

والأعمال التجارية، والصيارفة والسماسرة، حتى وأرباب المصانع والمعامل، ممن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا.

«وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواثق، تربط بعضهم ببعض الروابط الإسلامية، ويحملهم التزاحم الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم، والاتحاد الوثيق، ما ليس مثله للساسة المسلمين، إذ في «الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار، ودعاة الجامعة الإسلامية، والغلاة، وسائر الأحزاب الوطنية على أتمّ وئام، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لعلة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء، متّحدو الكلمة، يجدّون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية، التي لا يجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها، ولا يقف في وجهها...»[1].

---

(١) أرى أن هذا الكلام ظاهره المديح والثناء على ظاهرة إسلامية، رصد الكاتب ظهورها، وبوادر إشراقها في الأمة الإسلامية، وغايته وحقيقته أن يحذر قومه من قيام الوحدة الاقتصادية بين أبناء الأمة الإسلامية وفي أنظمتها، ونموها.. واستقلالها عن التبعية للغرب، ففيه تنبيه لقومه، لاستعدائهم على الأمة الإسلامية، واستعمارها اقتصادياً، ولعل إقامة الحكومات الاشتراكية والشيوعية في البلاد الإسلامية هو البديل الذي استعاض به الغرب عن الوحدة الاقتصادية الإسلامية، التي تحدث عنها المؤلف.. ونبه قومه إلى خطرها..

«فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى؟! إنما هي: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهي نفض اليد من رؤوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا، هي تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضّة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن، والغابات وقطر الحديد والجمارك، العقود التي ما دامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي، فهو يظلّ عالة على الغرب»[1].

هذا وقد أشار الكاتب فيما نقلناه عنه إلى أثر الأخلاق الإسلامية، في تحقيق الوحدة بين أبناء الأمة، وربط قلوب بعضهم ببعض، وجمع كلمتهم على منهج الحق..

ونستطيع أن نجزم بالقول إن غاية الأخلاق في الإسلام إنما هي جمع كلمة الأمة، والتأليف بين قلوبها، وقطع الحواجز النفسية التي قد تحول بينها..

وفيما سبق من الحديث عن العبادات وغيرها مقنع وكفاية.. إذ إن صلة الأخلاق بالعبادات في الإسلام صلة وثيقة محكمة..

أما أثر مبادىء الإسلام وقيمه ومثله في جمع كلمة الأمة، وتوحيد صفوفها، والتأليف بين قلوبها، فهذه المبادىء والمثل هي الأهداف العليا التي أراد الإسلام تحقيقها في حياة الأمة من خلال

---

(١) «حاضر العالم الإسلامي»: ١/٣٢٧، ٣٢٨.

ما شرع من العبادات والتشريعات، وما جاء به من مكارم الأخلاق..

فإذا أقيمت العبادات الإسلامية كما شرع الله تعالى، وسنّ رسوله ﷺ، بحقائقها وآدابها، وإذا نفّذت شريعة الله سبحانه، بشمولها وكمالها.. كان من لوازم ذلك في حياة الأمة أن تتحقّق الحرية بمفهومها الإسلامي الحق، وأن تتمتع الأمة بالأمن والعدل.. والأخوة والمساواة.. والتكافل الاجتماعي الوثيق..

وكل ذلك يعود على الأمة كلها بتوثيق الروابط، وإحكام العلائق، واجتماع الكلمة، حتى تكون الأمة كلها كالجسد الواحد..

الخاتمة

إن حكم السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين، يرتكز على حكم وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، وإذا كانت وحدة المسلمين فريضة كبرى.. قامت عليها أدلة كثيرة.. وأقيمت لها في الإسلام الأسس العملية، والتشريعات والعبادات التي تهدف من جملة ما تهدف إلى تحقيق وحدة الأمة، والوصول إليها..

فلا شك إذن أن السعي إلى تحقيق هذه الوحدة، واجتماع كلمة الأمة، واجب وجوباً مؤكداً.. من باب: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب...» وهذه قاعدة أصولية، تجمع عليها كلمة الأئمة والعلماء، على وجه الإجمال والعموم..

فلا قيام للإسلام بغير جماعة، ولا وجود للمسلمين، ولا كيان بغير اجتماع كلمة.. وإن وجود المسلمين بغير اجتماع كلمة يجعلهم غثاءً كغثاء السيل، لا قيمة لهم ولا وزن.. ولا هيبة لهم في قلوب أعدائهم، ولا سيادة لهم في أرضهم وبلادهم..

ولكن السؤال البدهي الذي يطرح في هذا المقام:

إذا كان السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين واجباً، فمَن المسؤول مسؤولية مباشِرة عن تحقيقه والقيام به؟.

وقلنا مسؤولية مباشرة، إذ لا يُعفى من قدر من المسؤولية كل فرد من أفراد المسلمين في الفرض الذي يعمهم جميعاً، ويتصل بأفرادهم وجماعاتهم اتصالاً وثيقاً..

ولكن تلك المسؤولية العامة غير مباشرة، ولا نريد الحديث عنها في هذا المقام..

وإنما الذي يهمنا المسؤولية المباشرة، والخطاب العيني الذي يتحمل تبعته من يكلف به، أمام الله، ثم أمام الناس..

وإنه ليظهر لنا من أدنى تأمل أن في الأمة صنفين هما مسؤولان المسؤولية المباشرة عن السعي إلى تحقيق وحدة الأمة، وجمع كلمتها:

الصنف الأول؛ هم الحكام؛ الذين تولوا أمر الأمة: ويتحملون أمام الله تعالى، ثم أمام الأمة، وأمام التاريخ مسؤولية القيام بحقوق الأمة كاملة، والسهر على مصالحها.. وإقامة ما يحقق عزتها وكرامتها، ورفعتها وسيادتها..

وإن من أعظم حقوق هذه الأمة على رعاتها السعي إلى تحقيق وحدتها، واجتماع كلمتها.. وحكام هذه الأمة هم الذين يملكون ذلك بالدرجة الأولى، ويتوجه إليهم الأمر في ذلك على وجه الفرض العيني، الذي لا يعفيهم من مسؤوليته عند الله تعالى، أي اعتذار أو تبرير، ولن نقف طويلاً عند الحديث عن مسؤوليتهم الكبرى.. والأمانة العظمى التي هي في أعناقهم تجاه هذا الأمر العظيم..

الصنف الثاني؛ هم العلماء والدعاة إلى الله تعالى: إن العلماء والدعاة إلى الله تعالى، يتحملون المسؤولية الكبرى عن السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم.. بعدما نكص أولو الأمر من حكام المسلمين عن هذه المسؤولية.. وفرّطوا في حمل الأمانة..

وإن العلماء والدعاة يفترض فيهم أن تكون غيرتهم على حرمات الإسلام أعظم من غيرتهم على حرماتهم الخاصة، ومصالحهم الشخصية..

ويفترض فيهم أن يحملوا همّ الإسلام الأكبر.. في هذا العصر.. وأن يكون الإسلام وقضاياه شغلهم الشاغل، وهمهم المقيم المقعد..

ويفترض فيهم أن يرفعوا أنفسهم إلى مستوى المسؤولية الروحية والفكرية والسلوكية.. لقيادة الأمة.. وجمع كلمتها على الإسلام.. وتوحيد صفها.. وأن يتخذوا الوسائل العملية.. والخطط الحكيمة التي تحقق ذلك، وتبلّغ تلك الغاية..

وإن العلماء والدعاة إلى الله تعالى هم أمل إصلاح الأمة، وتقويم اعوجاج حكامها، وردهم إلى منهج الله تعالى، وقديماً قال الإمام الحسن البصري، رحمه الله تعالى:

يا معشر العلماء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فَسَد؟!

وإن الحديث عن مسؤولية العلماء والدعاة عن السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم.. بما يمثّلونه من

جماعات وهيئات.. واتجاهات فكرية وعملية.. إن الحديث عن ذلك حديث طويل متشعب.. تتسع أطرافه عن لملمة الحديث فيه، وهو ذو فنون من القول.. وشجون في القلب.. ولا يمكن أن نفيَه حقَّه، ونحن نجعله خاتمة لهذا البحث..

وحسبنا في هذا المقام أن نبين الخطوط العامة، التي تكفل السعي الصحيح لهذه الغاية العظيمة، وتجعل الأمة تخطو خطوات نحوها..

والقول في هذا الباب أكبر من أن ينفرد به باحث أو كاتب، أو يجمع أطرافه.. إذ لا بد فيه من تضافر الجهود.. واجتماع أولي النهي من ذوي الفكر الواعي، والتجربة الغنية في ميدان العمل الإسلامي، وأن يكون فيه التدارس الدقيق، والنظر الحصيف، الذي يُبَلِّغ أحسن الثمرات، وأفضل النتائج..

وقبل ذلك لا بدّ للإنسان أن يدلي بدلوه بين الدلاء.. وأن يسهم بما يفتح آفاق العمل الجديد.. والتطور النوعي في سير الدعوة على مستوى الأمة الإسلامية..

وإن خلوّ الساحة الإسلامية من الرابطة الجامعة بين العاملين للإسلام، أبعد العمل الدعوي عن النظرة التقويمية الجامعة، التي تحتاج إليها الدعوة الإسلامية كل حين لتسديد الاجتهادات الدعوية وتصويبها، والبعد بها عن المزالق، و«المطبات» و«الأفخاخ» التي قد ينصبها لها أعداء الإسلام، والمتربصون بها، الذين يجدون فيها خطراً على وجودهم وكياناتهم الهزيلة، فيخططون لإجهاض الحركات الإسلامية.. وإحباط سعيها..

كما أن فقد الرابطة الجامعة بين العاملين للإسلام، وتخلّف كثير من العلماء عن الدعوة إلى الله تعالى، وتحمل مسؤوليتهم في ذلك، وتقدمهم لقيادة ركب الأمة، أتاح الفرصة أمام الأدعياء والمتطفلين ممن ليسوا من أهل العلم والفقه، والأهلية الشرعية المطلوبة لولوج باب الدعوة، وتسنم ذرى القيادة.. وما يفسده الكثير من هؤلاء أكثر مما يصلحونه.. وما يورثونه من خلل في التصور والمفاهيم، وخلل في السلوك والتكوين.. يزيد العمل الإسلامي تخبطاً واضطراباً، ويزيد شقة الخلاف بين المسلمين، ويبعد الهوة بين العاملين..

فلا بد أولاً: أن يكون واضحاً لدى جميع الدعاة والعاملين في ميدان العمل الإسلامي أن غاية وجودهم، والهدف الأسمى لتجمعاتهم تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، وجمع كلمتها...

ويكاد يكون هذا الكلام النظري مما تعلنه أكثر الدعوات، وتجعله من برامجها الأساسية، وتصوراتها الأولية عن عملها ومنهجها.. ولا يكاد يختلف فيه اثنان..

ولكن هذا الموقف النظري لا بد أن يشفعه من السلوك العملي، ما يتوافق معه، ويحققه ولا ينقضه.. وأن يرفض من السلوك العملي كل ما يؤدي إلى تفريق كلمة الأمة، وتشتيت شملها.. ولو لبس لبوس الإسلام، وخيّل لصاحبه أنه ينادي به غيرة على الإسلام، ودفاعاً عن حرماته..

فبعض المسلمين اليوم بحجة العمل للإسلام، والغيرة على مبادئه وحرماته، يقطّع روابط المسلمين، ويزيد في خلافهم، وتنافر

قلوبهم، شعر بذلك أم لم يشعر.. بعيداً عن الحكمة الواجبة، التي ينبغي ألا تغيب عن منطق الداعية وأسلوبه.. وأن تحكم علاقاته، وتجعله يوازن دائماً بين المصالح، فيقدم الأهم على المهم، والأرجح على الراجح..

وما علم هؤلاء أن العمل للإسلام، والغيرة على مبادئه وحرماته لا ينفك، ولا ينفصم عن الحرص على وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتأليف قلوبهم.. والسعي إلى تقريب وجهات نظرهم..

وإنما أتى هؤلاء من قلة الفقه بهذا الدين، وضيق الأفق، وضعف الوعي بمخططات أعداء الإسلام، واستغلالهم لهذه المواقف، ونفخهم في نارها، واستثمارهم لها غاية الاستثمار..

وإن الحكمة تقضي في كثير من الأحيان، أن تغضي عن بعض الشرّ فلا تواجهه مواجهة صريحة، وإنما تعمل فيما تراه من خير وصواب.. ثم إن الأيام كفيلة بأن تميت من الأفكار والمواقف والاتجاهات ما لا خير فيه، وأن تثبّت الحق والصواب.. ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...﴾[1].

وإن الحق القوي يجتثّ من الباطل أضعاف ما يقدر الحق الضعيف أن يقضي عليه من الباطل القوي، في معركة مباشرة.. فقوّ حقك.. واعتصم بربك.. تهزم جيشاً من الباطل مدججاً

(١) من سورة الرعد، الآية: ١٧.

بالغرور، مخدوعاً بالطغيان، «وقل: جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[1].

وإن هذا لمن عين الحكمة النبوية؛ فلقد أغضى النبي ﷺ عن مواقف كثيرة للمنافقين، لا جبناً عن مواجهتهم، ولا ضعفاً عن القضاء عليهم، أو إيثاراً للسلامة.. وإنما اتخاذاً للحكمة في ترك المعارك الجانبية، التي تشغله عن معركة الإسلام الكبرى، مع العدو الأكبر، الذي لا لبس في عداوته، ولا خلاف في أمره.. فيقدّم الأهم على المهمّ..

كما كان من حكمة النبي ﷺ في ذلك ألا يتخذ موقفه من المنافقين ذريعة لأعداء الإسلام ليعرضوا عن هذا الدين، ويصدوا الناس عنه، فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه»[2].

والمهمّ أن نعلم في هذا المقام أن الموقف العملي لكثير من الدعاة والعلماء العاملين في الميدان الإسلامي، لا يتوافق مع الموقف النظري الذي يؤمنون به، من ضرورة السعي إلى توحيد كلمة الأمة، والبعد عما يؤدي إلى تفريق جماعتها، وزيادة شقة الخلاف بينها، والإبقاء على الروابط القائمة لا تدميرها..

وينبغي ألا يغيب عن تصورنا، أن الخلاف في الرأي في دائرة الانتساب إلى أهل السنة والجماعة، والإقرار بأصول الإسلام

---

(١) من سورة الإسراء، الآية: ٨١.

(٢) انظر الحادثة في سيرة ابن هشام: ٢٩١/٣، الطبعة المحققة.

العامّة، ومبادئه الأساسية، مثل هذا الخلاف، لا يخرج عن الخطأ والصواب، ولا ينبغي أن يتعدى إلى النبذ بالألقاب، وإطلاق الاتهامات بالضلال والفسق.. والتحكم بضمائر الناس، وإحياء خلافات تاريخية أماتها الله تعالى بفضله، وإثارتها من جديد، في وقت أحوج ما يكون فيه المسلمون إلى جمع الكلمة، ولمّ الشتات، والتعاون على سدّ الثغرات الإسلامية، التي ينفذ منها أعداء الإسلام إلى قلوب المسلمين وعقولهم، وسلوكهم وعاداتهم، ليحكموا السيطرة على مجتمعاتهم..

وإن بعض الناس ليجدون التبريرات لأنفسهم فيما يفعلون، وما يقولون، وما أفسدت حياة أمتنا، إلا مثل هذه التبريرات والتأويلات، التي تفرّق الأمة وتمزقها، تحت شتى الشعارات الواهية..

ثم لا بدّ ثانياً؛ أن يكون لكل عامل للإسلام، وكذلك لكل جماعة تعمل للإسلام، حركتان: حركة ذاتية.. وهي حركة في محورها الخاص، لبناء صفها، وإقامة كيانها، وتحقيق برامجها التي قامت لأجلها.. وحركة عامة، تتصل بالمحيط الإسلامي على مستوى المجتمع الذي تعيش فيه، تؤثّر وتتأثر.. وتساهم من خلال هذه الحركة بتحقيق وحدة الأمة، وجمع كلمتها.. وتوحيد صفها..

ومثل ذلك كمثل حركة المسنن في الآلة؛ فللمسنن محور ذاتي يدور فيه.. ودورانه فيه يحقّق دوراً خاصاً به لا يقوم به غيره.. ويسدّ ثغرة لا يسدّها سواه.. وهو في الوقت نفسه، يتّصل بترس

أكبر.. أو مسنن أكبر، يحركه أو يتحرّك به.. وحركة المسننين تتصل بنظام الآلة كلها.. التي تحقق غاية لا يستطيع كلا المسننين الكبير والصغير أن يحققاها مجتمعين ولا منفردين.. وهما في الوقت نفسه لا بد منهما في حركة الآلة، وتحقيق غايتها المرسومة..

ومن خلال هذا المثل فإن الفرد في هذا العصر، لا يمكن أن يؤدي دوره في خدمة الإسلام على الوجه الأمثل، ما لم يلتزم بالجماعة، ويعمل من خلالها.. فيدُ الله على الجماعة..

والعجب كل العجب أن بعض المسلمين لا يزال يماري في هذه الحقيقة ويشكك فيها، في الوقت الذي يرى فيه أعداء الإسلام في كل الدنيا يخططون ويعملون من خلال تعاون وثيق، وتوحيد وتنسيق.. وتنظيم محكم دقيق.. لا محل فيه للارتجال والفوضى.. ولا مجال فيه للتجارب الفجة المكرورة، التي تتخبّط فيما اكتشف الآخرون خطأه فتجاوزوه، فتضيع الجهود وتتبدد.. وتزيد الأمة في التخلف والركود..

بل إننا نرى أن الشرق والغرب لم يلتقيا على شيء كما التقيا على التآمر على الإسلام، والتعاون على إجهاض الحركات الإسلامية، والقضاء عليها..

ثم لا بدّ ثالثاً؛ أن تقوم هيئات على مستوى العالم الإسلامي كله لتحقيق وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، تضم نخبة العلماء العاملين والدعاة إلى الله تعالى المخلصين في كل قطر إسلامي، تحرص على تحريك الهمم، وتنشيط العمل.. ونشر الوعي..

واكتشاف المواهب الفتية، والطاقات المبثوثة.. وتبحث المستجدات، وتعالج المشكلات.. وتدرس واقع العمل الدعوي، وتخطط لمستقبله في أقطار المسلمين، وتسعى لجمع الكلمة بين العاملين للإسلام في كل قطر من أقطاره.. وحلّ الخلافات بالجوار الهادىء البنّاء...

وتتعامل مع الشباب المتحمّس كما تتعامل مع الشيوخ ذوي الخبرة والتجربة.. وتجمع بين حكمة الشيوخ وحنكتهم وتجاربهم.. وقوى الشباب وطاقاتهم ومواهبهم.. وتشيع روح الحوار الهادف البناء، والتناصح المخلص المحب.. وتهيّىء فرص لقاء أهل العلم والفكر، وذوي الاتجاهات الدعوية المتميزة، وتحدثهم وحوارهم.. وتطرح المشكلات الدعوية على بساط الشورى العلمية والفكرية، وتتخذ من الوسائل الإعلامية، ما يحقق فكرتها، ويبلغ كلمتها..

وتكون هيئات شعبية، بعيدة عن الصلات الرسمية، والمظاهر الشكلية، والحدود الإقليمية..

لقد شغل دعاة الإسلام زمناً طويلاً بالمشكلات الآنية، والقضايا الصغيرة، والخلافات الهامشية عن همّ الإسلام الأكبر، ومشكلة المسلمين الأولى، ألا وهي السعي إلى وحدة الصف وجمع الكلمة.. وإن عملاً في هذا السبيل ليس كأي عمل.. وإنه لأعظم العمل وأجداه..

فاللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، تعزّ فيه دينك، وتنصر كتابك، وترفع أولياءك، وتذل أعداءك..

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيّىء لنا من أمرنا رشداً؛

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم؛

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه راجي عفو ربه
عبد المجيد بن أسعد بيانوني

ضحى الجمعة ١٧/٥/١٤١٠هـ
١٥/١٢/١٩٨٩م
في مدينة جدة ــ من المملكة العربية السعودية

مراجع البحث

	اسم الكتاب	المؤلف
١	القرآن الكريم	
٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي
٣	التفسير الكبير، مفاتيح الغيب	الإمام الرازي
٤	تفسير الإمام القرطبي	الإمام القرطبي
٥	تفسير الإمام ابن كثير	الإمام ابن كثير
٦	تفسير روح المعاني	الإمام الآلوسي
٧	في ظلال القرآن	الأستاذ سيد قطب
٨	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف	مجموعة من المستشرقين
٩	صحيح الإمام البخاري	الإمام محمد بن إسماعيل البخاري
١٠	فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي	الإمام عبد الله بن حجازي الشرقاوي
١١	فتح الباري شرح صحيح البخاري	الإمام ابن حجر العسقلاني

	اسم الكتاب	المؤلف
١٢	صحيح الإمام مسلم بشرح النووي	الإمام يحيى بن شرف النووي
١٣	مختصر سنن أبي داود	الإمام ابن قيم الجوزية
١٤	جامع العلوم والحكم	الإمام ابن رجب الحنبلي
١٥	رياض الصالحين	الإمام يحيى بن شرف النووي
١٦	كشف الخفاء، ومزيل الإلباس	الإمام إسماعيل بن محمد العجلوني
١٧	فيض القدير شرح الجامع الصغير	الإمام المناوي
١٨	صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي	الإمام أبو بكر بن العربي المالكي
١٩	مجمع الفوائد	الإمام محمد بن محمد بن سلمان
٢٠	مجمع الزوائد	الإمام الحافظ نور الدين الهيثمي
٢١	منهج النقد في علوم الحديث	د. نور الدين العتر
٢٢	مجموع الفتاوى	شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية
٢٣	السيرة النبوية	ابن هشام
٢٤	فقه السيرة	د. محمد سعيد رمضان البوطي
٢٥	حياة الصحابة	الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي
٢٦	تاريخ الخلفاء	الإمام السيوطي
٢٧	إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء	الشيخ محمد الخضري

	اسم الكتاب	المؤلف
٢٨	الخلفاء الراشدون	الأستاذ عبد الوهاب النجار
٢٩	البداية والنهاية	الإمام ابن كثير
٣٠	سيرة عمر بن الخطاب	الإمام ابن الجوزي
٣١	الأحكام السلطانية	الإمام الماوردي
٣٢	الأحكام السلطانية	الإمام القاضي أبي يعلى
٣٣	السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية	شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية
٣٤	مقدمة ابن خلدون	الإمام ابن خلدون
٣٥	نظام الإسلام	الأستاذ محمد المبارك
٣٦	الفصل في الملل والنحل	الإمام ابن حزم الأندلسي
٣٧	من أصول الفكر السياسي في الإسلام	د. محمد فتحي عثمان
٣٨	الأصالة والمعاصرة «بحث»	د. محمد أبو الفتح البيانوني
٣٩	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
٤٠	مجلة المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي «العدد الثاني»	إصدار الرابطة
٤١	واقعنا المعاصر	الأستاذ محمد قطب
٤٢	حاضر العالم الإسلامي، مع تعليقات الأمير شكيب أرسلان	لوثروب ستودارد
٤٣	«موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين»	شيخ الإسلام مصطفى صبري

	اسم الكتاب	المؤلف
٤٤	حركة الجامعة الإسلامية	أحمد فهد بركات الشوابكة
٤٥	مذاهب فكرية معاصرة	الأستاذ محمد قطب
٤٦	دراسات في الاختلافات الفقهية	د. محمد أبو الفتح البيانوني
٤٧	العبادة في الإسلام	د. يوسف القرضاوي
٤٨	الأركان الأربعة	الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
٤٩	تربية الأولاد في الإسلام	الشيخ الدكتور عبد الله علوان
٥٠	الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة	الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٥١	وحدة العمل الإسلامي بين الأمل والواقع	د. محمد أبو الفتح البيانوني
٥٢	العالم الإسلامي	الأستاذ محمود شاكر
٥٣	فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام	الأستاذ صالح بن عبد الله العبود

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المبحث الأول: (٩ ـ ٩٧)	٩
الأدلة الشرعية على وجوب وحدة الأمة الإسلامية	٩
النوع الأول من الأدلة	٩
(أ) الأدلة من القرآن الكريم	٩
الدليل الأول:	١٠
الدليل الثاني:	١٢
الدليل الثالث:	١٣
الدليل الرابع:	١٥
الدليل الخامس:	١٦
الدليل السادس:	١٧
(ب) الأدلة من السنة النبوية:	١٨
الدليل الأول:	١٩
الدليل الثاني:	٢١
الدليل الثالث:	٢٣
الدليل الرابع:	٢٣
الدليل الخامس:	٢٦
الدليل السادس:	٢٩

الموضوع	الصفحة

(ج) الأدلة من أقوال الصحابة ومواقفهم: ٣١
الدليل الأول: ٣١
الدليل الثاني: ٣٢
الدليل الثالث: ٣٢
الدليل الرابع: ٣٢
الدليل الخامس: ٣٣
الدليل السادس: ٣٣
الدليل السابع: ٣٣
إشكال والجواب عنه: ٣٤
النوع الثاني من الأدلة؛ وهي: الأدلة الاجتهادية الاستنباطية، وتشمل: ٣٨
(أ) الأدلة التي تعود إلى القواعد الشرعية، والأصول العامة، وفهم روح التشريع ومقاصده الكلية ٣٨
الدليل الأول: ٣٨
الدليل الثاني: ٤٢
الحقائق التي دلت عليها الوثيقة ٤٣
الدليل الثالث: ٤٤
كلمة نفيسة لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ٤٩
(ب) الأدلة المستفادة من المسار التاريخي لهذه الأمة، وتشمل: ... ٥٠
أولاً: واقع الأمة السياسي والاجتماعي في عهد النبوة ثم في عهد الخلافة الراشدة ٥٠
ركيزتان عظيمتان قام عليهما المجتمع في المدينة ٥٤
حال الخلافة الراشدة ٥٥
الصفات التي توفرت في القيادة الإسلامية ٥٦

الموضوع	الصفحة

خصائص عهد الخلافة الراشدة ٦١
التحديات التي واجهت الخلافة الراشدة ٦١
ثانياً: واقع الأمة السياسي والاجتماعي بعد عهد الخلافة الراشدة، وما مرّ به من أطوار ٦٥
ملامح متشابهة تجمع العصور كلها ٦٨

(ج) الواقع الحاضر لهذه الأمة ٧٩
المبحث الثاني: (٩٩ ـ ١٥٣) ٩٩
إقامة أصول الإسلام ومبادئه، تحقق وحدة الأمة، وتجمع كلمتها ... ٩٩
أسباب تمزق الأمم السابقة، واختلاف كلمتها، دراسة لآيات من القرآن ٩٩
الحقائق التي تحدثت عنها آيات سورة الشورى ١٠٠
كلام شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ١٠٣
عصمة هذه الأمة من الاختلاف بإقامة الدين بلا غلو ولا تقصير ١٠٩
حقائق الإسلام ومبادئه، تستلزم وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم .. ١١٠
بيان ذلك على وجه الإجمال ١١٠
توحيد الله تعالى أول ما يجمع كلمة الأمة ١١٢
ما ينبثق عن وحدة العقيدة من حقائق ١١٢
وحدة التصور ١١٣
التقارب الفكري في الاجتهاد والرأي ١١٣
الاختلاف في فروع الدين لا يضرّ وحدة المسلمين ١١٤
وقفة موجزة عند العبادات ١١٥
الصلاة، ودورها في جمع كلمة المسلمين ١١٥
صلاة الجماعة ١١٥
صلاة الجمعة ١٢٠

الموضوع	الصفحة

صلاة العيدين ١٢٠
صلاة الاستسقاء ١٢١
الزكاة، ودورها في جمع كلمة المسلمين ١٢٣
التفاوت في المجتمعات بين الناس، وكيف حله الإسلام؟ ١٢٤
ليست الزكاة كل الواجب المالي ١٢٨
حث الإسلام على بلوغ ذروة البر .....
صورة من المجتمع الإسلامي الأول ١٢٩
واقع المسلمين اليوم، وغلبة الروح المادية على نفوسهم ١٣٠
الصيام ودوره في جمع كلمة المسلمين ١٣١
نظرة إجمالية ١٣١
الثمرة القريبة للصيام ١٣٣
علاقة الصيام بالزكاة ١٣٤
غيظ أعداء الإسلام مما يرون من آثار الصيام في حياة الأمة ١٣٥
الحج ودوره في جمع كلمة المسلمين ١٣٦
إشارة قرآنية إلى وحدة الإنسانية على الحق.. وهدى للعالمين ١٣٦
من مقاصد الحج الأساسية: إبراز الأمة الإسلامية أمام سائر الأمم .. ١٣٨
رحلة تعريفية فريدة ١٣٩
مظاهر الوحدة الإسلامية في الحج ١٤٠
الحج مؤتمر للمسلمين عالمي ١٤١
أدرك أعداء الإسلام آثار الحج في حياة الأمة.. أكثر من بعض المسلمين ١٤٣
لقاء أفكار أعداء الإسلام مع مخططات الفرق الباطنية الحاقدة ١٤٤
كلمة هامة لأحد الغربيين ١٤٥
شرائع الإسلام ونظمه من أهم عوامل وحدة المسلمين ١٤٦

الموضوع	الصفحة

دور الوحدة الاقتصادية، وأثرها في وحدة الأمة.. كلمة لأحد الغربيين ١٤٨
أثر الأخلاق الإسلامية في جمع كلمة المسلمين وارتباطها الوثيق بالعبادات ١٥٠
أثر مبادىء الإسلام وقيمه ومثله، في جمع كلمة الأمة ١٥٠
الخاتمة (١٥٣ ـ ١٦٣) ١٥٣
وجوب السعي إلى تحقيق وحدة المسلمين ١٥٣
من المسؤول عن ذلك؟ مسؤولية مباشرة ١٥٤
صنفان: الأول: الحكام.. واقعهم تجاه هذه المسؤولية ١٥٤
الصنف الثاني: العلماء والدعاة إلى الله ١٥٥
نظرة عامة في مكانة العلماء ومسؤوليتهم ١٥٥
الخطوط العامة التي تكفل السعي الصحيح ١٥٦
خلو الساحة من رابطة تجمع العاملين ١٥٦
تخلف العلماء أتاح الفرصة أمام الأدعياء ١٥٧
الهدف الأسمى لتجمعات المسلمين الدعوية؛ تحقيق وحدة الأمة ... ١٥٧
تناقض هذا الموقف النظري مع سلوك بعض الجماعات ١٥٧
من الحكمة في سلوك سبيل الدعوة ١٥٨
الخلاف في الرأي لا يخرج عن الخطأ والصواب في دائرة أهل السنة والجماعة ١٥٩
لا بدّ للعاملين للإسلام من حركتين: حركة ذاتية، وحركة عامة ١٦٠
مَثَلُ ذلك: كمثل حركة المسنن في الآلة ١٦٠
لا يزال بعض المسلمين يماري في ضرورة الجماعات.. والعمل من خلالها ١٦١
لا بد من هيئات على مستوى العالم الإسلامي لتحقيق وحدة المسلمين ١٦١

الموضوع	الصفحة

دور هذه الهيئة وأسلوب عملها ١٦٢
مراجع البحث ١٦٥
فهرس الموضوعات ١٦٩